أبو عبيدة بن الجراح

إعداد

صلاح عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
٥١ ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب : فرسان الإسلام) أبو عبيدة بن الجراح
(المؤلــــف : صلاح محمد عبد الحميد
الناشـــــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف:
رقم الإيداع : ٨٩٢١
طبعة ثانية : ٢٠١٥

فهرسة أثناء النشر

صلاح محمد عبد الحميد ،
فرسان الإسلام / صلاح محمد عبد الحميد – القاهرة ـ ط١
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
٨٠ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك :- ٩٧٧-٦١٦٩-٢٨-٧
١ – الإسلام - تراجم
أ. العنوان ٩٢٢,١

آية قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن

يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

صحابة رسول الله هم من صحبوا رسول الله محمد بن عبد الله وآمنوا بدعوته. والصحبة في اللغة هي الملازمة والمرافقة والمعاشرة. رافق الصحابة رسول الله محمد بن عبد الله في أغلب فترات حياته بعد الدعوة، وساعدوه على إيصال رسالة الإسلام ودافعوا عنه في مرات عدة. وبعد وفاة رسول الله محمد بن عبد الله قام الصحابة بتولي الخلافة في الفترة التي عرفت بعهد الخلفاء الراشدين، وتفرق الصحابة في الأمصار لنشر تعاليم الإسلام والجهاد وفتح المدن والدول. وقاد الصحابة العديد من المعارك الإسلامية في بلاد الشام وفارس ومصر وخراسان والهند وبلاد ما وراء النهر.

عن أبو هريرة_ رضي الله عنه_ عنه قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) "

وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة ، وضيق الحال بخلاف غيرهم ، ولأن إنفاقهم كان في نصرته -صلى الله عليه وسلم- ، وحمايته ، وذلك معدوم بعده ، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم ، وقد قال تعالى (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً)(الحديد:10) وهذا كله مع ما كان فيهم في أنفسهم من الشفقة ، والتودد ، والخشوع ، والتواضع ، والإيثار ، والجهاد في الله حق جهاده ، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل ، ولا ينال درجتها بشيء ، والفضائل لا تؤخذ بقياس ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"

وقال البيضاوي _رحمه الله تعالى_ : " معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه ، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص ، وصدق النية) " مع ما كانوا من القلة ، وكثرة الحاجة والضرورة " وقيل " السبب فيه أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام ،

وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها ، وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين لقلة عدد المتقدمين ، وقلة أنصارهم فكان جهادهم أفضل ، ولأن بذل النفس مع النصرة ، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها . "

ومما جاء في فضلهم –رضي الله عنهم– حديث عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه_ عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال :(خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) "وإنما صار أول هذه الأمة خير القرون؛ لأنهم آمنوا به حين كفر الناس ، وصدقوه حين كذبه الناس ، وعزروه ، ونصروه ، وآووه ، وواسوه بأموالهم وأنفسهم ، وقاتلوا غيرهم على كفرهم حتى أدخلوهم في الإسلام"

ومما جاء في فضلهم ما رواه أبو بردة _رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي

فإذا ذهبت أتى أصــحابي ما يوعدون ، وأصــحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصــحابي أتى أمتي ما يوعدون) " وهو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض"

وها هو أمير المؤمنين علي_ رضي الله عنه_ يصف حال الصحابة فعن أبي راكة قال : صــليت خلف علي صــلاة الفجر فلما ســلم انفلت عن يمينه ثم مكث كأن عليه الكآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح قال :

لقد رأيت أصــحاب محمد –صــلى الله عليه وســلم– فما أرى اليوم شــيئا يشــبههم كانوا يصبحون ضمرا شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ويراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصــبحوا ذكروا الله مادوا كما تميد الشــجر في يوم الريح فهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم.

فالصحابة هم الذين عرفوا من أحوال رسول الله محمد بن عبد الله ما جعلهم يهرعون إليه ويضعون مقاليدهم بين يديه ينغمسون في فيضه الذي بهر منهم الأبصار وأزال عنهم الأكدار، وصيرهم أهلاً لمجالسته ومحادثته ومرافقته ومخالطته، حتى آثروه على أنفسهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم، وبلغ من محبتهم له وإيثارهم الموت في سبيل دعوته للإسلام أن هان عليهم اقتحام المنية كراهة أن يجدوه في موقف مؤذ أوكربة يغض من قدره

وهناك عدة ثوابت عند أهل السنة عن الصحابة، منها:

- الصحابة كلهم عدول، لا يجوز تجريحهم ولا تعديل البعض منهم دون البعض.

- الصـــحابة لم يذكرهم الله في القرآن إلا وأثنى عليهم وأجزل الأجر والمثوبة لهم، ولم يفرق بين فرد منهم وفرد ولا بين طائفة وطائفة. وفيهم يقول النبي محمد) :خيرالقرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)

ولعل من القائد الحوارى الزبير بن العوام من حوارى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم له صــفاته الخاصـــة به وكذلك له حياته الخاصـــة التى ســوف نعرض لها فى هذا الكتاب لإلقاء الضوء على شخصية الصحابى الجليل الزبير بن العوام فى هذه السطور .

المؤلف

من هو أبو عبيدة بن الجراح ؟

نسبه

هو عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، أبو عبيدة، مشهور بكنيته وبالنسبة إلى جده، وأمه أميمة بنت غنم. ولد سنة 40 قبل الهجرة/ 584م. وكان رجلاً نحيفًا معروق الوجه، خفيف اللحية طوالاً، أجنأ (في كاهله انْحِناء على صدره)، أثرم (أي أنه قد كسرت بعض ثنيته)

روي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن أبي عبيدة بن الجراح:((إنه أمين هذه الأمة)). الأمين هنا هو الثقة والأمانة صفة لكل صحابة رسول الله ﷺ,

وإن كـان لكـل صـاحب مـن أصـحاب النبـي ﷺ سـمة اختصـه بهـا رسـول الله ﷺ, فقـد وصـف عثمـان بـن عفـان رضي الله عنه بالحيـاء وعليـاً رضي الله عنه بالقضـاء وقـال عـن أبـي بكر:((لـو كنت متخذاً خليلاً لكان أبا بكر)). إنه أول من لقب بأمير الأمراء.

يلتقـي نسـبه مـع رسـول الله ﷺ فـي فهر"اسـم أحـد جـدوده"كان إسـلام أبـي عبيـدة فـي بدايـة الإسـلام حـين دعـاه أبـو بكـر إلـى ديـن الله ثم هـاجر إلـى الحبشـة واشـتاق إلـى رسـول الله ﷺ ,فعـاد مسـرعاً ليسـعد بصـحبته ثـم هـاجر إلـى المدينـة وآخـى النبـي ﷺ بينـه وبين سعد بن معاذ .

صفاته

قالوا في صفته: كان وضيء الوجه، بَهِيَّ الطَلْعة، نحيل الجِسم، طويل القامة، خفيف العارِضَين، ترتاح العَيْنُ لمرآه، وتأنَس النفْسُ بِلقْياه، ويطْمَئِنّ الفؤاد إليه، وكان رقيق الحاشية جمَّ التواضع، شديد الحياء لكنه كان إذا حزب الأمر، وجدَّ الجِدّ يغْدو كاللّيْث، لا يلْوي على شيء ، رِقةٌ ما بعدها رِقة، وبهاء ما بعده بهاء، إشْراق وجه ما بعده إشْراق.

قالوا: كان يشْبِهُ نصْل السيْف، رَوْنَقاً وبهاءً، ويحْكيه حِدَّةً ومضاء، إنه أبو عبيدة بن الجراح

سيدنا عبد الله بن عمر وصفه, فقال:

"ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً، وأثْبتَها حياء، إنَ حدَّثوك لم يكْذِبوك، وإنْ حَدَّثْتهم لم يُكَذِّبوك, إنهم أبو بكرٍ الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح"

وهكذا وصف النبي المؤمن, فقال:

"مـن عامـل النـاس فلـم يظْلمهـم، وحـدَّثهم فلـم يكْـذِبهم، ووعـدهم فلـم يخْلفْهـم، فَهـو ممن كَملَتّ مروءته، وظهرتّ عدالته ، ووجبتّ أُخَوَّته، وحرمت غيبته"

ترتيبه فى الإسلام

ان مـن السـابقين السـابقين، أسـلم فـي اليـوم الثـاني لإسـلام أبـي بكـرٍ رضـي الله عـنه، وكـان إسـلامه علـى يـدي أبـي بكـرٍ، فـإذا أكْـرم الله أحـدكم بِهِدايـة إنسـانٍ علـى يـده, فأنت من أسعد الناس.

أيها الأخوة الأكارم، أحبّ دائماً أنْ أُذَكّركم بِقَوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

"يا علي لأنّ يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النّعم"

[أخرجه أبو داود في سننه]

خير لك من الدنيا وما فيها، وخير لك مما طلعت عليه الشمس، فالإنسان آن له أن ينتقل من طور التلقي إلى طَور الإلقاء، ومن طَور الأخذ إلى طَور العطاء، ومن طَور الاهتداء إلى طَور الهِداية ، آن له أنْ يرفعه الله عز وجل بِحسَب عمله الطَّيِّب، فهذا سيِّدُنا الصديق أجْرى الله على يده هداية عُظماء المسلمين، وسيِّدنا أبو عبيدة قد أسلم على يد سيدنا الصديق، ولعل العشرة المبشّرين بالجنة أسلموا كلّهم على يد سيدنا الصديق . كان إسلامه على يد سيدنا الصديق فَمضى به وبِعبد الرحمن بن عوف وبِعثمان بن مظعون وبِالأرقم بن أبي الأرقم إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فأعلنوا على يديه كلمة الحق، وكانوا القواعد الأولى التي أُقيم عليها صرح هذا الدِّين.

عُمر أبي عبيدة بن الجراح عند الإسلام:

أسلم في بداية الدعوة، أي قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وما بعدها.

أبو عبيدة بن الجراح لم يتزحزح عن مكانه في الغزوات بالرغم من المحن والابتلاءات:

سيِّدنا أبو عُبيدة بن الجراح بعثه النبي عليه الصلاة والسلام في جَمَعٍ من أصْحابه لِيتلَقَوا عيراً لِقُرَيْش، وأمَّره عليهم، وزوَّدَهُم جِراباً من تمرٍ، ولم يجِد لهم غيره، فكان أبو عبيدة يعطي الرجل من أصحابه كلَّ يومٍ تمرة، فَيمصُّها الواحد منهم كما يمُصُّ الصَبِيُّ ضَرْعَ أُمِّه طوال النهار ، ثمّ يشْرب عليها ماءَ، فكانت تكْفيه إلى الليل، هذا هو الطعام الخَشِن، طوال النهار تَمْرة،

أمـا الآن يقـول لـك: أيـن الشـاي الأخضـر؟ وأيـن المقَـبِّلات والفواكـه؟ أنـواعٌ منوَّعـة، أنـا الـذي لفـتَ نظـري أنَّ كـلّ هـذه الحيـاة الصـعبة والشـاقة وهـذا الجِهـاد، وهـذه الهِجـرة والمكَابـدة والتضْـحيَة، وهـذا الحـرّ والقـرّ جعلهـم أسـعد النـاس، وكـلُّ النعـيم الـذي نحيـاه، وكـلُّ الرفـاه وكـلُّ هـذه المـواد التـي بـين أيْدينا مـن دون معْرفـةٍ بـالله هـي عَـيْنُ الشّـقاء، لـذلك اُطْلُبوا العِزَّة عند الله.

ويـوم أُحـدٍ حينمـا هُـزِم المسـلمون، وطَفِـق صـائح المُشْـركين يُنـادي: دلُـوني علـى محمـد، كـان أبـو عبيـدة بـن الجـراح أحـد النفـر العشَـرة الـذين أحـاطوا بـالنبي عليـه الصـلاة والسـلام ليـذودوا عنـه بِصـدورِهم رِمـاح المشْـرِكين، فلمـا انْتهَـت المعْركـة كـان النبـي عليـه الصـلاة والسـلام قـد كُسِـرَت رُباعيَّتُـه، وشُـجَّ جبينـه، وغـارَتْ فـي وجْنَتـه حلْقتـان مـن حلـق دِرْعِـه، فأقْبَـلَ عليـه الصـديق يريـد انْتزاعهمـا مـن وجْنَتيـه صـلى الله عليـه وسـلم، فقـال لـه أبو عبيدة:

"أُقسم عليك أنْ تترك ذلك لي، فتركه، فخشي أبو عُبيْدة إنْ اقتلعهما بيده أنْ يُؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعضَّ على أولاهما بثَنِيَّتيْه عضاً قوياً محكماً فاستخرجها، ووقعتْ ثنيَّتُه، ثمَّ عضَّ على الأخرى بثَنِيَّته الثانية فاقْتلعها، فسقطتْ ثنيَّتُه الثانية، قال أبو بكرٍ: فكان أبو عُبيْدة من أحسن الناس هتْماً, الأهْتم الذي كُسرت أسنانه الأماميَّة, لقد كان في قلوبهم حبٌّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم"

حينما قال أبو سفْيان:

" ما رأيْتُ أحداً يُحبُّ أحداً كحُبِّ أصْحابِ محمدٍ محمَّداً, ففعلُ أبي عبيدة هذا مصداق قول أبي سفيان"

شَهِد أبو عُبيْدة بن الجراح المشاهدَ كلها، وما تخلَّف عن النبي إطْلاقاً.

مناقب أبي عبيدة بن الجراح

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة؛ قال النبي ﷺ: "أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة."

حب النبي ﷺ له وثناؤه عليه؛ روى الترمذي عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "نِعْمَ الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن جبل، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح."

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أيُّ أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قالت: عمر. قلت: ثم من؟ قالت: ثم أبو عبيدة بن الجراح. قلت: ثم من؟ قال: فسكتت.

أثر الرسول ﷺ في تربية أبي عبيدة بن الجراح:

من هذه المواقف التي تدل على مدى تأثره بتربية النبي ﷺ له:

في السنة الثامنة للهجرة أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى أرض بَلِي وعُذْرة في غزوة ذات السلاسل، ووجد عمرو بن العاص رضي الله عنه أن قوة أعدائه كبيرة، فأرسل إلى الرسول ﷺ يستمده، فندب النبي ﷺ الناس من المهاجرين الأولين، فانتدب أبو بكر وعمر في آخرين، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح مددا لعمرو بن العاص رضي الله عنه. فلما قدموا عليه، قال عمرو رضي الله عنه: أنا أميركم. فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأبو عبيدة أمير المهاجرين. فقال: إنما أنتم مددي. فلما رأى ذلك أبو عبيدة رضي الله عنه، وكان حسن الخلق، متبعا لأمر رسول الله ﷺ وعهده، فقال: تعلم يا عمرو أن رسول الله ﷺ قال لي: "إن قدمت على صاحبك فتطاوعا"، وإنك إن عصيتني أطعتك.

ومـن أثـر الرسـول ﷺ فـي تربيتـه هـذا الموقـف البـارع؛ فعـن عبـد الله بـن شـوذب قـال: جعـل أبـو أبـي عبيـدة يتصـدى لأبـي عبيـدة يـوم بـدر، وجعـل أبـو عبيـدة ﷺ يحيـد عنـه، فلمـا أكثـر الجـرَّاح قصـده أبـو عبيـدة فقتلـه؛ فـأنزل الله فيـه هـذه الآيـة} :لاَ تَجِدُ قومـا يُؤْمِنُـونَ بِـاللَّه والْيَـومِ الآَخـرِ يـوادُّون مـنْ حـادَّ اللَّه ورسـولَه ولَـو كَـانوا آَبـاءهم أَو أَبنَـاءهم أَو إِخْـوانهم أَو عشيرتَهم أُولَئـك كَتَـب فـي قلُـوبِهِم الإيمـانَ وأَيَّـدهم بِـروحٍ منْـه ويـدخلُهم جنَّـات تَجـرِي مـنْ تحتهـا الأَنْهـار خالـدين فيهـا رضـي اللَّه عـنهم ورضـوا عنْـه أُولَئـك حـزْب اللَّه أَلاَ إِنَّ حزْب اللَّه هم الْمفْلحون] {المجادلة: 22.[

ومـا كـان لأبـي عبيـدة ﷺ أن يعـزم هـذه العزمـة إلا بـروح مـن الله، تـنفض عـن قلبـه الطـاهر السـليم كـل عـرضٍ مـن أعـراض الـدنيا الفانيـة، وتجـرده مـن كـل رابطـة وآصـرة إلا رابطة العقيدة.

أهم ملامح شخصية أبي عبيدة بن الجراح

الأمانة والقيادة :

روى البخاري بسنده عن حذيفة ﷺ قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنَّا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال" :لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين ." فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال" :قم يا أبا عبيدة بن الجراح ."فلما قام، قال رسول الله" :ﷺ هذا أمين هذه الأمة."

الثبات في الميدان والدفاع عن الرسول ﷺ :

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سمعت أبا بكر رضي الله عنه يقول: لما كان يوم أُحد ورمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر، فأقبلت أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسان قد أقبل من قِبل المشرق يطير طيراناً، فقلت: اللهم اجعله طاعة حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ. فإذا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قد بدرني، فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ. قال أبو بكر رضي الله عنه: فتركته. فأخذ أبو عبيدة بثنية إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره، وسقطت ثنيَّة أبي عبيدة رضي الله عنه ، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيَّة أخرى فسقطت، فكان أبو عبيدة في الناس أثرم.

الزهد :

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال لرسوله: انظر ما يصنع؟ فقسمها أبو عبيدة رضي الله عنه ، فلما أخبر عمر رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: "الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا."

مشاورة الجند :

كان رضي الله عنه من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خطوة يخطونها، وعندما تحتشد الروم لاستعادة أرض الشام استشار أصحابه، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص، أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية.

بعض مواقف أبي عبيدة بن الجراح مع الرسول والصحابة

وكـان ﷺ ممـن ثبـت مـع الرسـول ﷺ يـوم أُحـد، وقـد أسـرع إلـى رسـول الله ﷺ ونـزع الحلقتين من المغفر اللتين دخلتا في وجنة رسول الله.ﷺ

وروى الإمـام أحمـد بسـنده عـن أبـي جمعـة حبيـب بـن سباع قـال: تغـدينا مـع رسـول الله ﷺ ومعنـا أبـو عبيـدة بـن الجـراح ﷺ ، قـال: فقـال: يـا رسـول الله، هـل أحـد خيـر منـا؟! أسـلمنا معـك، وجاهـدنا معـك. قـال" :نعـم، قـوم يكونـون مـن بعـدكم، يؤمنـون بـي ولـم يروني."

بعض مواقف أبي عبيدة بن الجراح مع الصحابة:

مع أبي بكر الصديق :

بعث أبو بكر ﷺ إلى أبي عبيدة ﷺ هلُمَّ حتى أستخلفك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول" :إن لكل أمة أمينا، وأنت أمين هذه الأمة ."فقال أبو عبيدة : ما كنت لأتقدم رجلاً أمره رسول الله ﷺ أن يؤمَّنا.

وقال أبو بكر الصديق يوم السقيفة: "قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين"، يعني عمر وأبا عبيدة.

مع عمر بن الخطاب :

كان عمر يقول: "لم أكن مغيرا أمرا قضاه أبو عبيدة."

وأول كتاب كتبه عمر ﷺ حين ولِي كان إلى أبي عبيدة يوليه على جند خالد ﷺ ،

إذ قال له: "أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك."...

مع خالد بن الوليد :

لما عزل عمر ﷺ خالداً ﷺ وولّى أبا عبيدة ﷺ ، قام خالد ﷺ وقال للناس: "بعث عليكم أمين هذه الأمة". وقال أبو عبيدة ﷺ للناس عن خالد ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول" :خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة."

بعض مواقف أبي عبيدة بن الجراح مع التابعين:

وعن سليمان بن يسار أن أهل الشام قالوا لأبي عبيدة بن الجراح : خذ من خيلنا صدقة. فأبى، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ

فـأبى، فكلمـوه أيضـا فكتـب إلـى عمـر بـن الخطـاب ﷺ، فكتـب إليـه عمـر بـن الخطـاب" : إن أحبـوا فخـذها مـنهم، واردداهـا علـيهم، وارزق رقـيقهم". قـال مالـك: أي ارددها على فقرائهم.

أثر أبي عبيدة بن الجراح في الآخرين:

روى عنـه أحاديـث النبـي ﷺ مـن الصـحابة أبـو ثعلبـة جرثـوم الخشـني، وسـمرة بـن جنـدب، وصـدي بـن عجـلان، ومـن التـابعين عبـد الـرحمن بـن غـنم، وعبـد الله بـن سـراقة، وعبد الملك بن عمير، وعياض بن غطيف.

في تعليمه الفقه وغيره:

عنـد الإمـام أحمـد بسـنده عـن أبـي أمامـة قـال: أجـار رجـل مـن المسـلمين رجـلاً، وعلـى الجـيش أبـو عبيـدة بـن الجـراح ﷺ، فقـال خالـد بـن الوليـد وعمـرو بـن العـاص: لا نجيـره. وقـال أبـو عبيـدة: نجيـره؛ سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول" :يجيـر علـى المسـلمين أحدهم."

بعض الأحاديث التي نقلها أبو عبيدة بن الجراح عن النبي:ﷺ

في سنن الدارمي بسنده عن أبي عبيدة بن الجراح ؓ قال: قال رسول الله :ﷺ "أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك أعفر، ثم ملك وجبروت يستحل فيها الخمر والحرير."

وفي سنن الدارمي أيضا عن سمرة، عن أبي عبيدة بن الجراح ؓ قال: كان في آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال" :أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب."

أبوعبيدة وقصة الحوت

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَال : بعثَنَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم وأَمَّر علَيْنَا أَبَا عبيدة نتلقَى عيراً لقُريشٍ وزوَّدنا جراباً منْ تمرٍ لَم يجدْ لَنَا غيره فكَان أَبو عُبَيْدَة يُعْطينا تمْرةً تمْرَةً – قَال – فقُلْت كيف كُنْتُم تصنعون بها قَال نَمصُّها كمَا يمصُّ الصَّبِيُّ ثُمَّ نَشْرب علَيْهَا منَ الْماء فتَكْفينا يومنا إلَى اللَّيْل وكُنَّا نضْرِبُ بعصيِّنَا الْخَبطَ ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْماء فنَأْكُلُهُ قَال وانطَلَقْنَا علَى ساحِل الْبحرِ فرفَع لَنَا علَى ساحِلِ الْبحْرِ كهيْئَةِ الْكَثيبِ الضَّخْمِ فَأَتَيْنَاه فإِذَا هِي دابَّةٌ تُدْعى الْعنْبَر قَال قَال أَبو عبيدة ميتَةٌ .

ثُمَّ قَال لا بلْ نحْنُ رسُلُ رسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم وفِي سبيل الله وقَد اضْطُرِرْتُمْ فكلُوا قَال فأَقَمْنَا علَيْه شهْراً ونحْنُ ثَلاثُ مائَة حتَّى سمنَّا قَال ولَقَدْ رأَيْتَنَا نَغْتَرِفُ منْ وقْبِ عيْنِه بِالْقلال الدُّهْن ونقْتَطعُ منْهُ الْفدر كَالثَّور – أَو كقَدْرِ الثَّورِ – فَلَقَدْ أَخَذَ منَّا أَبو عُبَيْدة ثلاثَةَ عشر رجلاً فأَقْعدهم فِي وقْبِ عيْنه وأَخذَ ضلَعاً منْ أَضلاعه فأَقَامها ثُمَّ رحل أَعظَم بعيرٍ معنا فمرَّ منْ تحْتها وتزَوَّدنا منْ لَحْمه وشائق

فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ « هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا ؟ " قَالَ : فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْهُ فَأَكَلَهُ " [رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم]

كان من السابقين إلى الإسلام ، وكان ممن هاجر إلى الحبشة ، وكان ممنمع القرآن

كان من أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ _ رضي الله عنها _ أَيُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ؟ قَالَتْ : أَبُو بَكْرٍ ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَتْ : عمر ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَتْ : ثُمَّ أَبُو عبيدة بْنُ الْجَرَّاحِ ، قُلْتُ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : فَسَكَتَتْ " [رواه الترمذي وغيره وقَال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وصححه الألباني].

أبو عبيدة وغزوة بدر

في غزوة بدر جعل أبو (أبو عبيدة) يتصدى لأبي عبيدة ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده فقتله ، فأنزل الله هذه الآية

قال تعالى :"(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليومِ الآخر يوادُّون منْ حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباء هم أو أبناء هم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الأيمان ")000

وقف قتل أبي عبيدة بن الجراح لأبيه يوم بدر

موقف قتل أبي عبيدة بن الجراح لأبيه يوم بدر

من المواقف التي يستدل بها الكثير من العلماء على عقيدة الولاء والبراء موقف أبي عبيدة بن الجراح– رضي الله عنه– من أبيه، فقد قتل أبو عبيدة أباه عبد الله بن الجراح يوم بدر، فهل صح هذا الخبر ؟

ذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى} :لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] {المجادلة: 22]

أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه – قال القرطبي: "قال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وقيل: يوم بدر. وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة، وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله حين قتل أباه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ... } الآية. قال الواقدي: "كذلك يقول أهل الشام، ولقد سألت رجلًا من بني الحارث بن فهر فقالوا: توفي أبوه قبل الإسلام."

وروى الحاكم في (المستدرك) في مناقب أبي عبيدة – رضي الله عنه – بسنده عن عبد الله بن شَوذب قال: جعل أبو عبيدة بن الجراح ينصب الأل (*) لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يوادُّونَ {الآية، وسكت عنه الذهبي. ورواه البيهقي من طريق الحاكم، كما في (السنن الكبرى) وقال عقبة: "هذا منقطع."

وقال الحافظ ابن حجر) في الفتح) في مناقب أبي عبيدة بن الجراح –رضي الله عنه– "وقُتل أبوه كافرا يوم بدر، ويقال إنه هو الذي قتله، ورواه الطبراني وغيره من طريق عبد الله بن شوذب مرسلًا."

وقـال –رحمـه الله– فـي (التلخـيص): "روى الحـاكم والبيهقـي منقطعـا عـن عبـد الله بـن شـوذب قـال: (جعـل أبـو أبـي عبيـدة بـن الجـراح ينصـب الآلهـة لأبـي عبيـدة يـوم بـدر وجعـل أبـو عبيـدة يحيـد عنـه فلمـا أكثـر الجـراح قصـده أبـو عبيـدة فقتلـه) وهـذا معضـل، وكان الواقدي ينكره ويقول: مات والد أبي عبيدة قبل الإسلام."

وقـال فـي (الإصـابة) فـي ترجمتـه: "ويقـال إنـه قتـل أبـاه يـوم بـدر ونزلـت فيـه {لَا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِـاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ ... } وهـو فيمـا أخرجـه الطبرانـي بسـند جيـد عـن عبـد الله بـن شـوذب قـال: "جعـل والـد أبـي عبيـدة يتصـدى لأبـي عبيـدة يـوم بـدر فيحيـد عنـه، فلمـا أكثـر قصـده فقتلـه فنزلـت . وأقـوال الحـافظ الثلاثـة فـي (الفـتح) وفـي (التلخـيص) وفـي (الإصـابة) ووصـفه للخبـر بأنـه مرسـل، وفـي الأخـرى بأنـه معضـل وفـي الثالثـة بـأن سـند جيـد لا تعارض بينها عند التأمل.

وعبد الله بن شَوذب أكثر الأئمة على توثيقه، لكن الخبر منقطع، وابن شوذب ولد سنة 86هـ ومات سنة 144 هـ، وقيل:156هـ . ولذا قال ابن الملقّن: "وهذا مرسل على قول الأكثر، وعلى قول من زعم أن المرسل لا يكون إلا من التابعين يكون معضلاً؛ لأن عبد الله هذا إنما يروي عن التابعين."

فائدة

ومسألة قتل الابن المسلم أباه المشرك قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى: "إذا كان (الوالد) مشركًا جاز للولد قتله، وفي كراهته نزاع بين العلماء."(9) أ. هـ

وقد بوب الإمام البيهقي في (السنن) لما أورد الخبر بقوله: (باب المسلم يتوقى في الحرب قتل أبيه، ولو قتله لم يكن به.

وقد جاء عن اثنين من الصحابة فيما وقفت عليه – استئذانهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في قتل أبويهما، هما: عبد الله بن عبد الله بن أُبي وحنظلة بن أبي عامر قال ابن حجر في (الفتح): "ومن مناقبه –عبد الله بن عبد الله بن أُبي– أنه بلغه بعض مقالات أبيه فجاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– يستأذنه في قتله، قال" :بل أحسن صحبته"، أخرجه ابن منده من حديث أبي هريرة– رضي الله عنه– بإسناد حسن، وفي الطبراني من طريق عروة بن الزبير عن عبد الله بن عبد الله بن أُبي أنه استأذن، نحوه، وهذا منقطع لأن عروة لم يدركه " ا. هـ.

وقال في (الإصابة) في ترجمة حنظلة –رضي الله عنه: "وروى ابن شاهين بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه قال: استأذن حنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن (عبد الله بن) أُبي ابن سلول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في قتل أبويهما، فنهاهما عن ذلك . ا. هـ. والحافظ حسن الإسناد.

هنا مع أنه في الفتح أعلّه بالانقطاع؛ لأن عروة بن الزبير –رضي الله عنه– تابعي، فهو لم يدرك القصة.

واستئذان عبد الله بن عبد الله في قتل والده رواه أيضا الحاكم في (المستدرك) قال: حدثنا أبو العباس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول قال: "قلت: يا رسول الله، أقتل أبي؟ قال :لا تقتل أباك."

وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وإسناده مرسل كما سبق. وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد) إلى الطبراني وقال: "رجاله رجال الصحيح إلا أن عروة بن الزبير لم يدرك عبد الله بن عبد الله بن أُبي"، ثم قال: "وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: مر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعبد الله بن أُبي وهو في ظل أُطْم فقال: غبر علينا ابن أبي كبشة، فقال ابنه عبد الله: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والذي أكرمك لئِّن شئت لأتيتك برأسه، فقال" :لا، ولكن بر أباك، وأحسن صحبته ."رواه البزار، ورجاله ثقات . ا. هـ.

ورواه ابن إسحاق في السيرة في غزوة بني المصطلق، قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: "يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبي فيما بلغك (**) عنه. فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتّ الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم :بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معناوعاصم بن عمر تابعي، فالحديث مرسل.

فائدة

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (16) في قصة اعتزال الرسول –صلى الله عليه وسلم– نساءه قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: "والله لئِن أمرني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بضرب عنقها لأضربن عنقها .." (يعني ابنته حفصة –رضي الله عنها.(

فائدة

قال الصالحي (ت 942 هـ) -رحمه الله- معلقًا على استئذان عبد الله بن عبد الله بن أُبي في قتل أبيه: "وفي هذا: العلم العظيم والبرهان النيِّر من أعلام النبوة، فإن العرب كانت أشد خلق الله حمية وتعصبا، فبلغ الأيمان منهم ونور اليقين من قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منهم في قتل أبيه وولده، تقربا إلى الله تعالى وتزلّفًا إلى رسوله، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أبعد الناس نسبا منهم، أي الأنصار، وما تأخر إسلام قومه وبني عمه وسبق الإيمان به الأباعد إلا لحكمة عظيمة؛ إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الأيمان به لقيل: قوم أرادوا الفخر برجل منهم، وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد وقاتلوا على حبه من كان منهم، ورهبة من الله تعالى أزالت صفة قد كانت سَدِكتْ في نفوسهم من أخلاق الجاهلية، لا يستطيع إزالتها إلا الذي فطر الفطرة الأولى."

أبو عبيدة بن الجراح وغزوة أحد

وحضر غزوة أحد، وكان من الذين ثبتوا في ميدان المعركة عندما كانت النكسة، وكان من المدافعين عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونزع يوم أحد الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة رسول الله بثنيته، فانقلعت ثنيتاه. عن عائشة قالت: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد، ورمي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان من المغفر، فأقبلت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيراناً، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني فقال: أقسمَ عليك أنْ تتْرك ذلك لي، فتركَه، فخَشي أبو عُبيدَة إنِ اقْتَلَعهما بيده أنْ يُؤلِم رسولَ الله، فعَضَّ على أولاهما بثَنِيَّته عضاً قَوِياً محكَماً فاستَخْرجها ووقَعَتْ ثَنّيته، ثُمَّ عَضَّ على الأخرى بثَنِيَّته الثانية فاقتلعها فسقطت ثنيَّته الثانية. قال أبو بكر: "فكان أبو عُبيدَة من أحْسن النَّاسِ هتَماً.

سرية أبا عبيدة لرصد عيراً لقريش

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة راكب قبَل الساحل ليرصدوا عيرا لقريش، وعندما كانوا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان قدر مزود تمر، يقوتهم منه كل يوم قليلاً قليلاً، حتى كان أخيرا نصيب الواحد منهم تمرة واحدة، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن. يقول جابر t أحد أفراد هذه السرية: "كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل". وقد سأل وهب بن كيسان جابرا t: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت. وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشجر، قال جابر t: وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، فسمى ذلك الجيش جيش الخبط. وقد أثّر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السرية الشجاعة

وهو رجل من أهل بيت اشتهر بالكرم، فنحر للجيش ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه. فبينما هم كذلك من الجوع والجهد الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتاً ضخما، فألقاه على الشاطئ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة،

ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليها شهرا، ونحن ثلاثمائة حتى سمَّنا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن، ونقتطع منه قطعة اللحم قدر الثور،

فلقد أخذ منّا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق،

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما حبسكم؟" قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة، فقال: "هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا" قال: فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله.

قصة عجيبة، وكرامة من الله تعالى لجنوده في سبيل الله، نلحظ في هذه القصة: أن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته،

فكانـت التمـرة الواحـدة طعـام الرجـل طـوال يـوم كامـل فـي سـفر ومشـقة، ويمـرون وهـم علـى تلـك الحـال مـن فقد التمـر وأكـل الخـبط علـى الجهنـي الـذي اشـترى منـه قـيس أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم،

كمـا كانـت الحــال فـي الجاهليـة، لأنهـم اليـوم ينطلقـون بـدين الله الـذي جـاء لـيحفظ علــى النــاس أمـوالهم فــي جملــة مـا حفـظ وهـم اليـوم يفرقـون بـين الحــلال والحـرام الـذي تعلمـوه مـن مـنهج رب العـالمين. وتـدل القصــة علـى جـواز أكـل ميتـة البحـر، وفـي السـنن عــن ا بــن عمــر رضـــي الله عنهمــا مرفوعــا وموقوفًــا: "أحلــت لنــا ميتتــان ودمــان، فأمــا الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال"

بداية الفتح الإسلامى للشام

الفَتْحُ الإِسْلَامِيُّ للشَّامِ ، هي سلسلةٌ من المعارك العسكريَّة وقعت بين سنتي12 هـ\633م و19هـ\640م بهدف سيطرة دولة الخلافة الرَّاشدة على الشَّام أو ولاية سوريا الروميَّة، وقد تولّى قيادة تلك الحملات كُلٍ من خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجرَّاح ويزيد بن أبي سفيان بشكلٍ رئيسي، وقد أفضت في نتيجتها النهائية إلى انتصار المسلمين، وخروج الشَّام من سيطرة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ودُخولها في حظيرة دولة الإسلام. بدأت معارك فُتوح الشَّام في خلافة أبي بكر بعد نهاية حروب الرِدَّة، وكانت قد اندلعت مناوشاتٌ بين الدَّولة الإسلاميَّة التليدة والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة منذُ سنة 629م في غزوة مؤتة، غير أنَّ المعارك الحاسمة وقعت في خلافة عُمر بن الخطَّاب، وكان أهمها معركة اليرموك التي هزم فيها الجيشَ البيزنطيُّ هزيمةً ساحقة حدَّدت مصير البلاد

فُتحت العديد من المدن الشّاميَّة سلما دون قتال، بعد أن أعطى المسلمون أهلها عهدًا بحفظ الأمن والأملاك الخاصَّة، والحريَّة من الرق، وعدم التعرُّض للدين ودور العبادة بما فيها الكُنس والكنائس والأديرة والصوامعوكذلك عدم إرغام النَّاس على اعتناق الإسلام، ومن هذه المدن :بعلبك، وحماه، وشيزر، ومعرَّة النعمان، ومنبج؛ والقسم الثاني من المدن فُتحت سلما، إنما بعد حصارٍ طويلٍ، لا سيَّما في المواقع المهمَّة حيث وجدت حاميات روميَّة كبيرة، ومنها :دمشق، والرقة، وحمص، وبيت المقدس؛ أما القسم الثالث من المدن فقد فُتح حربا، ومنها رأس العين، وحامية غزة، وقرقيسيا، في حين استعصت جرجومة في الشمال حتى عهد عبد الملك بن مروان الأُموي.

جـرت معـارك فـتح الشّـام تزامنـاً مـع معـارك فـتح العـراق وفـارس، وقـد وجـد الكثيـر مـن المـؤرخين أنَّ سـقوط الشّـام السـريع نوعـاً مـا، يعـود إلـى عـاملين أساسـيين: أولهمـا إنهـاك الجـيش البيزنطـي بعـد الحـرب الطويلـة مـع الفُـرس، وثانيهمـا سـخط قطـاعٍ واسـع مـن الشعب على السياسة البيزنطيَّة،

وهـو مـا دفـع بعـض القبائـل والجهـات المحليَّـة لمُسـاعدة المُسـلمين مُسـاعدةً مباشـرة. لكـنّ الـرُّواة والمؤرخـون اختلفـوا حـول سـير المعـارك ومـا حصـل بعـد أجنـادين، فقـال الـبعض أنَّ دمشـق افتتِحـت بعـد أجنـادين، وقـال آخـرون أنَّـه بعـد أجنـادين كانـت اليرمـوك ثـُـمَّ دمشـق وفحـل معـاً، فـي حـين تـذكر روايـات كثيـرة أُخـرى أنَّـه بعـد أجنـادين كانت فحل بالأُردن،

وبقيت تلك مشكلةً لم يجرِ التوصُّل إلى حلٍّ لها في تاريخ صدر الإسلام [1].أقبل أغلب الشّوام على اعتناق الإسلام بعد سنوات من الفتح، واستقرَّت العديد من القبائل العربيَّة المجاهدة في البلاد الجديدة واختلطت بأهلها، ومع مرور الوقت استعربت الغالبيَّة العظمى من أهالي الشَّام وأصبحت تُشكِّل جُزءاً مهماً من الأمة الإسلامية.

الحالة الاجتماعية لبلاد الشام

كان عامَّة الشوام قبل الفتح الإسلامي يشعرون بالظُلم الاجتماعي المرتبط أساسا بالنظام المالي الذي أثقل كاهلهم بالضرائب الباهظة. وكانت الضرائب المفروضة على المدن والقُرى الشّاميَّة على نوعين: ضرائب نظاميَّة، وضرائب طارئة لمواجهة أوضاع خاصَّة.

وأهمَّ الضرائب النظاميَّة اثنتان :الأولى هي ما يُفرض على الأرض وتُقدَّر بنسبة معيَّنة من قيمتها، ثُمَّ قُدِّرت بنسبة 12.5% من المحاصيل، والثانية هي ضريبة الرأس. أمَّا الضرائب الطارئة فتفُرض في مناسباتٍ خاصَّة، وتُعدُّ أكثر إرهاقًا للطبقة الشعبيَّة من الضرائب النظاميَّة، مثل ضريبة الحرب في أيَّام الإمبراطور هادريان، وضريبة التَّاج، وضريبة الطعام لسد الحاجات المتغيِّرة للحاميات وللإدارة الروميَّة. وأُضيفت ضريبة الأرض إلى ضريبة الرأس في عهد قسطنطين، فأضحى مجموع الوحدات التي تجمع بين النَّاس والأرض، أساسا للتقدير، وهذا يعني ربط الإنسان بالأرض .ويبدو أنَّ هذا النظام الضريبي لم يعد يفي بسد حاجات الإمبراطوريَّة بسبب كثرة النفقات العسكريَّة والإداريَّة. وسبَّب عيوب النظام الإداري انتشار الفساد، وتفشِّي السرقة، وابتزاز الأموال، وأدّى ذلك إلى الفقر والخراب، وأثار الاضطرابات الدَّاخليَّة، وفُقدان الأمن. وما حدث في الإمبراطوريَّة بعد ذلك من مشكلاتٍ اجتماعيَّة

وتراجع الزراعة بِفعل الحَروب المستمرَّة في الخارج والثورات الدَّاخليَّة؛ دفع بالإمبراطور جُستنيان إلى حل المشَكلات الماليَّة من خِلال إصلاح النظام الضريبي، ففرض على رعاياه أن يدفعوا كُل ما للحَكومة من ضرائب، وأمر بِمسح الأرض، وقسَّمها إلى وحداتٍ متُساويةٍ في قيمة الإنتاج بِغض النظر عن مساحتها، تدفع كُل وحدة منها ضريبة ثابتة، ثُمَّ أحصى السكان في القُرى وفرض عليهم ضريبة الرأس. وتحدَّدت قيمة الضريبة في الشَّام على الذُكور من 14 إلى 65 سنة، وعلى الإناث من 12 إلى 65 سنة .وحصل الملاكون الكِبار على حق جباية الضرائب المَستحقة على ضِياعهم ودفعها إلى الخزينة المركزيَّة مُباشرةً ممَّا جعل سَلطة الجُباة عليهم مَنعدمة. وكُلِّف المجلس البلدي في كُل قريةِ بِجمع الضرائب من القُرى التابعة للمدينة وتوزيعها. ولقد ساهم سكَانُ القُرى في دفع الضرائب.

نتج عن هذا النظام أن تحمَّل الفلاحون والمزارعون العبء الأكبر من الضريبة، وربطوا هم وأُسرهم بالأرض التي سجّلوا عليها، وذلك بهدف تيسير جمع الضرائب، ولضمان زراعة الأرض. كما أنَّ سوء الجباية وتعسُّف الجباة دفع صغار الملاكين إلى طلب حماية كبار الملاكين ليتولّوا مسؤوليَّة دفع الضرائب عنهم مقابل تنازلهم لهم عن أملاكهم، فأصبحوا بذلك مزارعين مرتبطين بالأرض. وعمد الملاكون الكبار من جهتهم إلى مضايقة الملاكين الصغار، ودفعهم إلى طلب حمايتهم بهدف توسيع ملكيَّاتهم. ومع أنَّ السلطات الحكوميَّة المركزيَّة لم تكن تشجّع الحماية، وحاولت الحد منها، إلا أنها اعترفت بها في أوائل القرن الخامس الميلادي، كأمرٍ واقع وكحلّ لمشكلة الضائقة الاقتصاديَّة. ومن الأمثلة التي يسوقها المؤرخون المتعلّقة بالظلم الاجتماعي في الشام خلال العصر البيزنطي،

وتؤخذ على أنَّها دليل على وقوعه، أنَّ المسلمين عندما اضطروا للجلاء عن حمص قبل معركة اليرموك، طلب أبو عبيدة بن ن الجراح من عامله على الخراج أن يعيد ما كان قد أخذه من أهل حمص إليهم، بحجَّة أنَّه لا ينبغي للمسلمين أن يأخذوا من الأهالي شيئًا إذا لم يمكثوا في المدينة ويدافعوا عنها .واجتمع حبيب بن مسلمة بأهل حمص وردَّ عليهم مالهم، فقالوا له» :ردَّكم الله إلينا، ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الرُّومِ، ولكن والله لو كانوا هم علينا ما ردُّوا علينا، ولكن غصبونا، وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا، لولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا ممَّا كنَّا فيه من الظلْمِ والغُشْمِ.«

إرسال النبى لحملات إلى الشام

أعاد النبي إرسال حملة إلى الشام بقيادة عمرو بن العاص بعد نحو شهر، عندما بلغه أنَّ حشودًا من بلي وقضاعة وعاملة وكلب وغسَّان ولخم وجذام تجمَّعت بهدف غزو المدينة المنوَّرة، وقد بلغ عديدها ثلاثمائة مقاتل.

وبِفعل الحشــود القبليَّة الضــخمة التي صــادفها عمرو، طلب نجدة عاجلة من المدينة، فأمدَّه النبي بِمائتي مقاتل بِقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح .وبعد عدَّة اصطدامات مع جماعات قبليَّة عادت الحملة إلى المدينة المنوَّرة . غطَّت هذه الحملة بِنتائجها الإيجابيَّة، المتمثلة بِفرض الوجود الإسلامي بعد الانتشار الواسع للمسلمين في هذه المناطق، وتهديد الشَّام وإن بشكلٍ غير مباشر؛ النتائج السلبيَّة لغزوة مؤتة،

وأعادت الثقة بالنفس إلى نفوس المسلمين في المدينة. ووصــلت إلى مســامع النبي، بعد عودته إلى المدينة في أواخر سنة8 هــ الموافقة لأوائل سنة630 م في أعقاب فتح مكة وانتصاره في حنين؛ أنباء عن حشــودٍ روميَّة – عربيَّة مشـتركة بِهدف القيام بِهجومٍ على المدينة والقضــاء على الدولة الإسلاميَّة الناشئة، قبل أن يشتد ساعدها

وتُشـكّل خطراً جديًّا على الوجودِ الروالبيزنطي في الشَّــام؛ فقرَّر التصــدّي لها. فخرج من المدينة في شهر رجب سنة 9هـ الموافق فيه شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة 630م على رأس جيش يقدَّر بِثلاثين ألف مقاتل، ووصل إلى تبوك،

لكن لم يقع قتال بفعل انسحاب قوى التحالف شمالاً قبل وصول المسلمين. وراح النبيُّ يتّصل بزعماء القبائل المسيحيَّة المنتشرة في المنطقة في محاولة لاستقطابهم وفك تحالفهم مع بيزنطية. وفعلاً وفدت عليه وفود القبائل المجاورة وصالحته على الجزية، فحقق بحركته الصعبة تلك، انتصارا على الجبهة الشماليَّة، إذ ربط العديد من القبائل العربيَّة الشاميَّة بالدولة الإسلاميَّة، فمدَّ نفوذها إلى عمق المناطق التي كان سكانها يعملون لصالح الروم ويؤدون دوراً خطيراً في مقاومة امتداد الإسلام باتجاه الشّمال، وفتح منافذ الطُرق إلى الشّام وبعث روح المقاومة والتحرير في نفوس العرب المقيمين بالديار البيزنطيَّة. وجهَّز النبيُّ، بعد عودته إلى المدينة المنوَّرة من غزوة تبوك، حملة أُخرى بقيادة أُسامة بن زيد لإرسالها إلى التخوم الشماليَّة. والواضح أنَّه لم يستهدف فتح الشّام أو الدخول في معركة سافرةٍ مع الروم بدليل أنَّها تألفت من ثلاثمائة مقاتل فقط، وإنَّما هدف أن تكون أشبه بمناورةٍ عسكريَّة، وإظهار قوَّة المسلمين أمام القبائل التي ما تزال تساند البيزنطيين، لكنَّ النبي توفي قبل أن تنطلق الحملة .

حروب الردة في عهد ابو بكر الصديق

ردة أهل البحرين :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى فأسلم على يديه، وأقام العلاء فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي المنذر بعده بقليل فارتد أهل البحرين، وملكوا عليهم المغرور، وهوالمنذر بن النعمان بن المنذر، وقال قائلهم: لوكان محمد نبياًمامات، ولم يبق في البحرين بلدة على الثبات سوى قرية:"جواثا"، وحاصر المرتدون مسلمي جواثا وضيقوا عليهم، حتى منعواعنهم الأقوات وجاع المسلمون جوعاً شديداً .

وكان قد قام في جواثا رجل من أشرافهم، وهو الجارود بن المعلى، خطيباً وقد جمعهم فقال: يامعشر عبدالقيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتموه،

ولا تُجيبوني إن لم تعلموه، فقالوا:سل، قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد؟ قالوا:نعم، قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمد صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: ونحن أيضاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنت أفضلنا وسيدنا، وثبتوا على إسلامهم، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه .

وبعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه العلاء بن الحضرمي لقتال أهل الردة في البحرين، فلما دنا منها جاء إليه ثمامة بن أثال في حشد كبير، وجاء بعض أُمراء تلك النواحي رفداً إلى جيش العلاء، ولما اقترب من المرتدين وحشودهم الضخمة نزل ونزلوا، وباتوا متجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتاً عالية في جيش المرتدين، فقال: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حذف، ودنا من خندقهم فأخذوه، وكانت أمه عجلية،

فجعل ينادي: يا أبجراه، فجاء أبجر بن بجير فعرفه، فقال: ما شأنك؟ قال: علام أُقتل وحولي عسكر من عجل وتيم اللات وغيرها؟ فخلصه، فقال له: والله إني لأظنك بئس ابن أخت أتيت الليلة أخوالك، فقال: دعني من هذا وأطعمني، فقد مت جوعاً، فقرب له طعاماً فأكل، ثم قال:زودني واحملني،يقول هذا والرجل قد غلب عليه السكِر، فحمله على بعير وزوده وجوزه. وجد عبد الله بن حذف المرتدين سكارى لا يعقلون من الشراب

فرجع إلى العلاء فأخبره، فركب العلاء من فوره بجيشه، وانقض على المرتدين فقتلوهم،إلا قسم استطاع الفرار والهرب .وغنم المسلمون جميع أموالهم وأثقالهم، فكانت غنيمة عظيمة .

ردة أهل عُمان :

ظهر في عمان رجل يقال له: ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وكان يضاهي في الجاهلية الجلندى، فادعى النبوة، وتابعه الجهلة من أهل عمان، فقهر جيفراً وعبداً، وألجأهما إلى الجبال، فبعث جيفر إلى الصديق رضي الله عنه فأخبره الخبر، وطلب مدداً فبعث رضي الله عنه بأميرين: حذيفة بن محصن، وعرفجة البارقي الأزدي، حذيفة إلى عمان، وعرفجة إلى مهرة، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان وحذيفة هو الأمير فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير .

ثم أمر الصديق رضي الله عنه – بعد قهر مسيلمة ومقتله – عكرمة بن أبي جهل أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان، ، ثم كتب الصديق إلى حذيفة وعرفجة أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من المسير من عمان أو المقام بها.فلحق عكرمة بحذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عمان، فساروا جميعاً فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفراً من مكان يسمى "رجاماً"، وبلغ لقيط بن مالك مجيء الجيش فعسكر في جموعه بِدَبَا، وجعل الذراري والأموال وراء ظهورهم،

واجتمع جيفر وعبد بمكان يقال له صحار فعسكرا به، وبعثا إلى أُمراء الصديق فقدمواعلى المسلمين، فتقابل الجيشان هناك، وتقاتلوا قتالاً شديداً، وجاء المسلمين في الساعة المناسبة مددٌ من بني ناجية وعبد القيس فقتل من المرتدين عشرة آلاف مقاتل، وتم النصر للمسلمين والقضاء على المرتدين في عمان .

ردة أهل مَهْرَة :

سار عكرمة بالمسلمين إلى بلاد مهرة، فوجد أهلها جندين، على أحدهما - وهم الكثرة – أمير يقال له: المصبح أحد بني محارب، وعلى الآخر الجند الآخرين أمير يقال له: شخريت، وهما مختلفان، وكان هذا الاختلاف رحمة على المؤمنين، فراسل عكرمة شخريتاً فأجابه، وانضاف بقواته إلى عكرمة،

وتمادى المصبح على طغيانه، مغتراً بكثرة من معه ومخالفته لشخريت، فسار إليه عكرمة ومن معه، فاقتتلوا مع المصبَّح أشد من قتال دبا، وتم النصر للمسلمين، وقتل المصبح وفر من كان معه .

ردة أهل اليمامة :

قال مسيلمة لأتباعه وقومه قبيل المعركة الفاصلة بينه وبين المسلمين :اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وأمنعوا نسائكم .

وتقدم خالد رضي الله عنه بالمسلمين حتى نزل بهم على كثيب يشرف على اليمامة فضرب به عسكره، وقدم رايته مع زيد بن الخطاب، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وهو على الميمنة، وعلى الميسرة شجاع بن وهب،

وعلى الخيل البراء بن مالك ثم عزله واستعمل عليهاأسامة بن زيد ، وقاتل البراء راجلاً، ثم أعاده خالد على قيادة الخيل فصنع الأعاجيب.وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، والعرب على راياتها .

وكانت الصدمة الأولى في المعركة عنيفة قاسية، انهزم الأعراب خلالها، حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد، وهموا بقتل أم تميم زوجته. وتنادى كبار الصحابة وقال ثابت بن قيس بن شماس: بئس ما عودتم أقرانكم، و نادوا من كل جانب: أخلصنا يا خالد، فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار، وصار البراء بن معرور كالأسد الثائر، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطُل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتاً حتى استشهد رضي الله عنه .

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتي من قبَلِك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذاً. وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس، عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قُدُماً،وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأُكلمه بحجتي، فقتل شهيداً رضي الله عنه .

وحمل خالد بن الوليد رضي الله عنه حتى اخترق صفوف المرتدين ووصل قُبالة مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ثم رجع، ثم وقف بين الصفين ودعا للمبارزة،ثم نادى بِشعار المسلمين، وكان شعارهم يومئذ: يا محَّمداه، وجعل لا يبرز إليه أحد من المرتدين إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا صرعه،واقترب خالد رضي الله عنه من مسيلمة، وعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق فأبى، فانصرف عنه خالد وعزل الأعراب عن المهاجرين والأنصار، وجعل كل قبيلة على رايتها يقاتلون تحتها، حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم وولى المرتدون الأدبار .

وتبع المسلمون المرتدين يقتلون منهم وهم مدبرون، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاؤوا، حتى ألجؤوهم إلى حديقة الموت، وقد أشار عليهم محكم بن الطفيل بدخولها، فدخلوها وفيها مسيلمة، وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله، وقال قائل: يا أبا ثمامة، أين ما كنت وعدتنا؟ فقال أبو ثمامة – أي مسيلمة –: أما الدين فلا دين،ولكن قاتلواعن أحسابكم، فاستيقن القوم أنهم كانوا على غيرشيئ.وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة .

وقال البراء بن مالك:يامعشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة،فاحتملوه فوق الترس، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم،فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه، ودخل المسلمون الحديقة من الباب الذي فتحه البراء، وفتح الذين دخلوا الأبواب الأخرى، وحوصر المرتدون وأدركوا أنها القاضية لا محالة .

ووصل المسلمون في الحديقة إلى مسيلمة، وإذا هو واقف في ثلمة جدار كأنه جمل أورق، يخرج الزبدُ من شدقيه من غيظه وحرج موقفه وانهيار بنيان زعامته، فتقدم وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم – قاتل حمزة رضي الله عنه – فرماه بحربته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط فنادت امرأة من قصر مسيلمة: وأمير الوضاءة قتله العبد الأسود (أي وحشي)

يقول وحشي: فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، خرجت معهم، وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس، رأيت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف وما أعرفه، فتهيأت له، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وشد عليه الأنصاري – عبد الله بن زيد – بالسيف فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قتلت شر الناس

الفتح الإسلامى للشام بعد وفاة النبى

يكادُ يتفق الباحثون في تاريخ الفُتوح الإسلاميَّة على أنَّ الشَّام كانت في مُقدّمة اهتمامات الخليفة أبي بكر الهادفة إلى التوسُّــــع عبر المناطق المألوفة للعرب جَغرافيًّا، وكانت هذه البِلاد أكثرها التصــاقًا بِذاكرة العربي التاجر، حيثُ سعى إليها في رحلة الصـيف أو سمع الكثير عنها من رجال القوافل ورواة الأخبار. وكانت رؤية الرســول التوسُّــعيَّة في تلك المنطقة حاضــرة في ذهن أبي بكر الحريص على انتهاج الســياســة النبويَّة منذُ بداية عهده. وإذا كانت ملامح هذه الســياســة قد ظهرت أولًا في العراق ، فإنَّ الجبهة الشَّــاميَّة قد اســتقطبت الجانب الأكبر من اهتمامات أبي بكر، وبخاصَّـة بعد انتصـار المسلمين في العراق .وتمَّت خطة التحرُّك نحو الشَّام في السـنة الثانية عشـرة للهجرة، بعد مُشـاوراتٍ أجراها أبو بكر مع كِبار الصـحابة من أهل الحل والعقد، ثُمَّ قام بِتعبئة المَسلمين لِغزو هذه البِلاد.

كان ردُّ فعل المسلمين الفوري الصَّمت، وذلك بِفعل هيبة غزو الروم، حتَّى قام خالد بن سعيد بن العاص الأُموي ، فتقبَّل الفكرة، فكان أوَّل من خرج إلى الشَّام بعد أن عقد له أبو بكر لِواء، هو أوَّل لِواء عقده لِحربِ الشَّام. تحمَّست بعض القبائل، في سياق هذه الحملة التعبويَّة، للمشاركة في عمليَّة فُتوحِ الشَّام، وأرسلت مقاتليها إلى المدينة المنوَّرة،

ومع ذلك ظلت الاستجابة بالمشاركة ضعيفة، مما دفع أبا بكر إلى استنفار قبائل اليمن، فجاءه المتطوعون من حمير ومذحج، ويشير البلاذري أنَّ أبا بكر سارع فور انتهاء حروب الرِدَّة إلى تعبئة قبائل نجد والحجاز واليمن لغزو الشَّام، وسعى لتشجيعها بالغنائم العظيمة، فسارع النَّاس إليه بين مُحتسبٍ وطامعٍ، [60]

وهذا يعني أنَّ بعض القبائل كانت تدفعهم غريزة الغزو والغنيمة، وفق تقاليد الغزو المعروفة في المجتمع العربي، وأنَّ أبا بكر لجأ إلى هذه الوسيلة التشجيعيَّة بعد أن لمس ضعف الاستجابة العربيَّة لِمشروعه، مما يدُلُّ على أنَّ بعض العرب

كان الإسلام لا يزال ضعيفاً في قُلوبهم، كما أنَّ منع أبي بكر المرتدين من المشاركة في حرب الفُتوح، وهم أكثر العرب، قد أثَّر على ذلك. ومهما يكُن من أمر، فإنَّ حركة الفُتوح الإسلاميَّة للشَّام، نوقشت بين أهل الحل والعقد، ثُمَّ عرضت على عامَّة المسلمين، ووضعت الخُطوط العريضة لها أثناء انعقاد اجتماع كبار الصحابة.

معركة اليرموك

معركـة اليرمـوك، كانـت سـنة 15(هـ636 - م (بـين المسـلمين والإمبراطوريـة البيزنطيـة، يعتبرهـا بعـض المـؤرخين مـن أهـم المعـارك فـي تـاريخ العـالم لأنهـا كانـت بدايـة أول موجــة انتصــارات للمســلمين خــارج جزيــرة العــرب، وآذنــت لتقــدم الإســلام الســريع فـي بـلاد الشـام .المعركـة حـدثت بعـد وفـاة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم عـام632 م بـأربع سنوات.

قررت الجيوش الإسلامية الانسحاب من الجابية بالقرب من دمشق إلى اليرموك بعد تقدم جيش الروم نحوهم. تولّى خالد بن الوليد القيادة العامة للجيش بعد أن تنازل أبوعبيدة بن الجراح، كانت قوات جيش المسلمين تعد 36 ألف مقاتل في حين كانت جيوش الروم تبلغ 240 ألف مقاتل.

فـي هـذه الأثنـاء غـزا الفـرس الساسـانيون منطقـة الجزيـرة (شـمال العـراق (وفـي سـنة 611 م اكتسـحوا سـوريا ودخلـوا الاناضـول محتلـين مدينـة مزاكـا القيصـرية. تمكـن بعـدها هرقـل مـن إزاحـة الفـرس مـن الأناضـول، إلا أنـه تعـرض لهزيمـة نكـراء عنـدما قـام بهجـومٍ كبيـرٍ علـى سـوريا ضـد الفـرس سـنة 613 م. خـلال العقـود التاليـة اسـتطاع الفـرس غـزو كـل مـن فلسـطين ومصـر ·وفـي هـذه الأثنـاء أعـد هرقـل العـدة لهجـومٍ مضـاد وقـام بإعـادة بنـاء جيشـه. حيـث قـام هرقـل بهجومـه أخيـراً بعـد تسـع سـنين أي فـي 622 م. بعـد انتصـاراته الحاسـمة علـى الفـرس وحلفائهـا فـي القوقـاز وأرمينيـا، قـام هرقـل فـي 627 م بهجـوم شـتوي ضـد الفـرس فـي منطقـة الجزيـرة محققـاً فـوزاً سـاحقاً فـي معركـة نينـوى .وعلـى هـذا النحـو أصـبحت عاصـمة الفـرس مهـددة أيضـاً. شـعوراً بـالخزي والعـار مـن هـذه الهـزائم تمـت إزاحـة كسـرى الثـاني وقتلـه فـي انقـلاب قـاده أبنـه قبـاذ الثـاني، الـذي جـنح إلـى السـلم فوراً، حيث وافق على الانسحاب من جميع الأراضي البيزنطية المحتلة.

وأعـاد لهرقـل الصـليب الحقيقـي – الـذي كـان يعتقـد بـأن النبـي عيسـى) عليـه السـلام) قـد صـلب عليـه – ومـن ثـم تـم إرجاعـه إلـى القـدس باحتفـال ملكـي مهيـب سنة 629 م.

وفـي هـذه الأثنـاء كانـت تطـورات سياسـية سـريعة تحـدث فـي الجزيـرة العربيـة، حيـث كـان النبـي محمـد صـلى الله عليـه وسـلم لا يـزال ينشـر الإسـلام، وبحلـول سـنة 630 كـان قـد اسـتطاع بنجـاح توحيـد معظـم الجزيـرة العربيـة تحـت سـلطة سياسـية واحـدة. وحـين تـوفي النبـي صـلى الله عليـه وسـلم فـي يونيـو/حزيران632 ، انتخـب أبـو بكـر خليفـة للمسـلمين خلفـاً للرسـول الكـريم .وحالمـا تـولى أبـو بكـر الخلافـة انبثقـت مشـاكل عنـدما ثـارت جهـراً العديـد مـن القبائـل العربيـة ضـد أبـي بكـر الـذي أعلـن الحـرب ضـد المتمـردين. والتـي عرفـت لاحقـاً بحـروب الـردة. بعـدها تمكّـن أبـو بكـر مـن توحيـد الجزيـرة العربيـة تحـت السلطة المركزية للخلافة الإسلامية ومركزها المدينة المنورة

.حالما تم تطويع التمرد، بدأ أبو بكر عهد الفتوحات، مبتدئاً بالعراق، المحافظة الأغنى للإمبراطورية الفارسية .وبإرساله أكثر جنرالاته عبقرية ودهائاً وهو خالد بن الوليد، تم فتح العراق بسلسلة من الحملات الناجحة ضد الفرس الساسانيين. نمت ثقة أبي بكر، وحالماً تمكن خالد بن الوليد من تأسيس معقل قوي في العراق، أعلن أبو بكر نداء التسلح لغزو الشام في فبراير/شباط من سنة634

.كان الفتح الإسلامي للشام عبارة عن سلسلة من العمليات العسكرية المخططة بعناية والمنسقة جيداً والتي استخدمت الإستراتيجية بدلاً من القوة المجردة للتعامل مع مقاييس الدفاع البيزنطية.

علـى أيـة حـال تبـين للجيـوش الإسـلامية بأنهـا أقـل مـن الـلازم للتعامـل مـع الـرد البيزنطـي، وطلـب قادتهـا التعزيـزات. أرسـل خالـد بـن الوليـد مـن العـراق إلـى الشـام مـع التعزيـزات ولقيـادة الغـزو. فـي تموز/يوليـو 634 ، هـزم البيزنطيـون علـى نحـو حاسـم في معركة أجنادين

.وسـقطت مدينـة دمشـق فـي أيلول/سـبتمبر 634 ، وتبعهـا معركـة الفحـل حيـث هزمـت وهلكـت آخـر المعاقـل العسـكرية المهمـة للبيـزنطيين فـي فلسـطين .تـوفي الخليفـة أبـو بكـر الصـديق فـي سـنة .636 وقـرر خلفـه عمـر بـن الخطـاب إكمـال توسـع الخلافـة الإسـلامية أعمـق إلـى الشـام. بـالرغم مـن أن حمـلات سـابقة ناجحـة قادهـا خالـد بـن الوليـد، إلا أنـه تـم اسـتبداله بـأبي عبيـدة .بتـأمين جنـوب فلسـطين، تقـدمت القـوات الإسـلامية الآن إلـى الطريـق التجـاري حيـث سـقطت طبريـا وبعلبـك مـن دون عنـاء كبيـر وبعـدها غـزا المسلمون مدينة حمص أوائل .636 وعليه أكمل المسلمون غزوهم عبر الشام

فتوح الشام

بدأ الفتح الإسلامي للشام في عهد الخليفة أبو بكر الصديق، الذي قرَّر مقاتلة الروم بعد أن هاجموا جيش خالد بن سعيد بن العاص المعسكر في أرض تيماء، فورَّع المسلمين على أربعة جيوش مختلفة، ووجَّه كلاً منها إلى جزء مختلف من بلاد الشام، قوام كلٍّ منها حوالي 8,000 مقاتل. فكان الجيش الأول بقيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن في جنوبي الشام، والجيش الثاني بقيادة يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، والجيش الثالث بقيادة أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، والجيش الرابع بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين

. وقال لهم أبو بكر إنهم سيكونون مستقلّين إن لم تكن هناك حاجة للاجتماع، فكل واحد يقود جيشه بنفسه ويكون أميراً على المناطق التي يفتحها،

أمـــا إن اقتضـــت الضـــرورة الاجتمـــاع فـــإن القائـــد ســـيكون أبـــو عبيـــدة بـــن الجـراح . لكـن عنـدما بلغـت الجيـوش الإسـلامية الشـام وجـدت جيوشـاً ضـخمة جـداً للـروم حشـدت لمقابلتهـا فـي كـل وجهاتهـا، فلمَّـا سـمع المسـلمون بـذلك قـرَّروا الاتحـاد، فاجتمعـت جيوشـــهم بـــاليرموك، وطلبـــوا المزيـــد مـــن المـــدد، فاحتـــار أبـــو بكـــر ثـــمَّ أمـــر خالـــداً بـــن الوليـــد بالســـير إلـــيهم بنصـــف جنـــوده مـــن العـــراق .فســـار خالـــد مســـيرته الشـــهيرة عبـــر صـــحراء باديـــة الشـــام وفـــي طريقـــه هزمالغساســـنة فـــي معركـــة مـــرج راهـــط، وفـــتح مدينـة بصـرى .وبعـد أن فـتح خالـد بصـرى، توجَّـه مـع أبـي عبيـدة بـن الجـراح إلـى دمشـق، فحاصـرها، لكـن هنـا وصـلته أنبـاء حشـود الـروم فـي أجنـادين، فانسـحب وجمـع جيوشـه كلهـــا هنـــاك، فبلـــغ عـــدد قـــوات المســـلمين 33,000 مقاتـــل والـــروم 100,000، فـدارت معركـة أجنـادين التـي هـزم فيهـا الـروم وقتـل قائـدهم وردان .وخـلال هـذه المرحلـة مـن الفـتح تـوفيَّ أبـو بكـر، وبعـد أن تـولى عمـر الخلافـة مـن بعـده سـرعان مـا عـزل خالـد بن الوليد عن قيادة جيوش الفتح، وعين مكانه أبا عبيدة بن الجراح .

بعد أجنادين توجَّه أبو عبيدة مع خالد لحصار دمشق، وتمكّنا من فتحها أخيراً بعد أن كانت قد حوصرت عدة مرات قبل ذلك .لكن وصلتهما أنباء عن تجمُّع جيش كبير من الروم في مدينة بعلبك، وأنه يسير جنوباً إلى فلسطين للقاء جيش عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة المؤلف من 5,300 جندي. فقرر أبو عبيدة وخالد السير إليهما بسرعة بجيشهما المؤلف من 27,000 مقاتل،وسبق خالد أبو عبيدة على رأس 1,500 فارس لضرورة السرعة اجتمعت جيوش المسلمين وجيوش الروم قرب موقع فحل جنوبي الشام، فدارت بعض المفاوضات قبل المعركة،

غير أنه لم تؤدي إلى شيء. والتقى الجيشان في 28 من ذي القعدة سنة 13 هـ (23 يناير 634م)، حوالي 32,000 من المسلمين ضد 50,000 إلى 80,000 من الروم، وانتصر المسلمون نصراً كبيراً، وقال ابن الأثير عن المعركة "فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالرداغ،

فأصيب الروم وهم ثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد."وبعد ذلك ولّى أبو عبيدة بعض قادته على دمشق وفلسطين والأردن، وسار مع خالد نحو حمص ففتحاها، ثم إلى سهل البقاع، وفتحا خلال ذلك مدينة بعلبك صلحاً .

التجهيز للمعركة

كان سقوط حمص وبعلبك سريعاً بعد فتح دمشق، وأصبحت مقاومة الروم لجيوش المسلمين ضعيفة. وبعد فتح دمشق، أو تحديداً أكثر خلال محاصرة حمص قبل فتحها، بدأ هرقل في أواخر سنة 635م بحشد كل قواته في منطقة أنطاكية وشمال الشام استعداداً لمعركة حاسمة، بعد أن تمركز في مدينة أنطاكية على أطراف الشام الشمالية لإدارة الحرب من هناك.

وقد بدأ حركة تجنيد إجباري في كل أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، فأرسل الأوامر إلى عماله على الولايات بتجنيد كل رجل بلغ الحلم في الإمبراطورية ويقول الرواة في وصف الجيوش البيزنطية السائرة إلى معركة اليرموك: "فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض

لم يكن هرقل يود في البداية خوض المعركة، غير أن أهل الجزيرة وقنسرين وشمال الشام أصرُّوا عليه، فقبل بقتالهم في حال ظهورهم، وإلا عاد إلى القسطنطينية. وولى ماهان قيادة الجيوش، وأعطاه لذلك 200 ألف درهم، ثم أعطى 100 ألف درهم أخرى لكل قادته، وخطب فيهم قبل المعركة قائلاً:

"يا معشر الروم، إن العرب قد ظهروا على الشام ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبر والشعير والذهب والفضة حتى يسبوا الأخوات والأمهات والبنات والأزواج ويخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيداً. فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتم".

كانت لدى المسلمين استخبارات فعالة وقوية، لذا فقد عرف أبو عبيدة مبكراً بتحركات الروم كلها، وبخطتهم وخطوط سيرهم غير أن قادتهم اختلفوا حول الخطة المناسبة لمواجهة الموقف، وحسب رواية ذكرها الأزدي فقد رأي يزيد بن أبي سفيان إدخال النساء والأطفال إلى مدينة حمص، فيما تدور المعركة مع الروم خارج المدينة. غير أن شرحبيل خشي أن يغدر أهل حمص بالمسلمين إن غلبوا، وأن يذبحوا نساءهم وأطفالهم، واقترح لذلك أبو عبيدة إخراج أهل حمص وإدخال المسلمين مكانهم، فاعترض شرحبيل لأن ذلك يخالف شروط الصلح. وأخيراً طرحميسرة بن مسروق العبسي الانسحاب إلى أطراف الشام، وانتظار التعزيزات من الخليفة، وأجمع الحاضرون على هذا الرأي. لكن من الجدير بالذكر أن صحة هذه الرواية ليست ثابتة، وقد تكون موضوعة بالكامل .

الجيوش المتحاربة فى معركة اليرموك

ضـــــمَّت جيـــــوش البيـــــزنطيين فـــــي معركـــــة اليرمـــــوك عرقيـــــات كثيرة،بينهـا الـروس والسـلاف والفرنجـة والـروم والإغريـق والجورجيـون والأرمـن والعـرب النصـارى .ووزعـت قـواتهم هـذه علـى خمسـة جيـوش متسـاوية الأعـداد، وقادتهـا هـم :ماهـان) ملـك أرمينيـا (علـى رأس جـيش أرمنـي كمـا أنـه القائـد العـام للجيـوش البيزنطيـة، وقنـاطير (أميـر روسـي) علـى رأس جـيش روسـي سـلافي، وجبلـة بـن الأيهـم) ملـك الغساسـنة (علـى رأس جـيش مـن نصـارى العـرب، بالإضـافة إلـى غريغـوري وديرجـان علـى رأس جيشـين أوربيَّـين .ولـيس معروفـاً علـى وجـه التحديـد مـن كـان القائـد الأعلـى للجـيش، فمـن الروايـات الشـائعة أنـه كـان الملـك الأرمنـي ماهـان، غيـر أن ذلـك لـيس مؤكـداً تمامـاً، وربمـا كـان السـقلار ثيـودور ترثوريـوس أحـد القـادة الأساسـيين فـي الجـيش، وربمـا كـان نقيطـا بـن شـاهبراز وجبلـة بـن الأيهـم قائـدين ذوي شـأن أيضـاً .كمـا وقد اختلف المؤرخون كثيراً في تعداد جيوش الروم في معركة اليرموك،

غيـر أن هنـاك سـتة أقـوال أساسـية فيهـا، هـي: 100,000 بقيـادة صقلارخصـي هرقـل (رواه ابـن إسـحاق)، و120,000 بقيـادة ماهـان وصـقلار (رواه ابـن عسـاكر وسـيف والوليـد والـبلاذري)، و200,000 بقيـادة ماهـان (رواه الطبـري)، و240,000 بقيـادة ماهـان (رواه سـيف)، و300,000 بقيـادة ماهـان (رواه الأزدي)، و400,000 بقيادة ماهان (رواه الأزدي)

وأمـا جيـوش المسـلمين فقـد كانـت صـغيرة جـداً، حيـث تألفـت قـوات المسـلمين الأصـلية التـي دخلـت الشـام للفـتح مـن أربعـة ألويـة مجمـوع جنودهـا 24,000 مقاتـل، ثـم ازدادوا قليلاً بعد وصول خالد من العراق للنجدة في معركة أجنادين .

ومـن الأقـوال الأساسـية فـي تعـداد جيـوش المسـلمين فـي المعركـة: 24,000 (رواه ابـن عسـاكر(، و36,000 بيـنهم 27,000 مـن الألويـة الأربعـة و9,000 مـع خالـد (رواه الطبـري(، و46,000 (رواه الطبـري .(وكـان بـين هـؤلاء 1,000 مـن الصحابة، وحوالي 100 ممن شهدوا غزوة بدر

الهجوم البيزنطى المضاد

وبـاحتلالهم لمدينـة حمـص ، كـان المسـلمون علـى بعـد مسـيرة واحـدة للوصـول إلـى حلـب ، ومـن المعقل القوي للبيـزنطيين فـي أنطاكيـا ، حيـث يقطـن هرقـل .أنـذرت سلسـلة النكسـات علـى نحـو خطيـر هرقـل الـذي حضـر لهجـوم مضـاد لاسـتعادة المنـاطق الضـائعة. فـي 635 يزدجـرد الثالـث – امبراطـور الفـرس – ابتغـى تحالفـاً مـع الإمبراطـور البيزنطي. زوج هرقل ابنته(طبقاً للتقاليد، حفيدته) مانيانة إلى يزدجرد الثالث

وهـو تقليـد رومـاني لعقـد التحـالف. بينمـا اسـتعد هرقـل لهجـوم عظـيم فـي الشـام، كـان مـن المفتـرض أن يقـوم يزدجـرد الثالـث بهجـوم مضـاد فـي نفـس الوقـت فـي العـراق، فـي مـا كـان مـن المفتـرض أن يكـون جهـداً منسـقاً. علـى أيـة حـال، عمـر بـن الخطـاب كانـت لـه بصـارة فـي هـذا التحـالف، حيـث أشـغل يزجـرد الثالـث فـي مفاوضـات للسـلام، حيـث دعـاه بوضـوح إلـى اعتنـاق الإسـلام. عنـدما أطلـق هرقـل هجومـه فـي آيار/مـايو 636، لـم يـتمكن يزدجـرد مـن التنسـيق مـع المنـاورة بسـبب الظـروف المضـنية فـي حكومتـه. الأمـر الـذي أضـاع مـا كـان ليكـون خطـة محكمـة. ربـح عمـر بـن الخطـاب نصـراً حاسماً ضـد هرقـل فـي معركـة اليرمـوك، واسـتخدم اسـتراتيجية عظيمـة فـي إشـغال يزدجـرد الثالـث وإيقاعـه فـي الفـخ. وبعـد ثلاثـة شـهور خسـر يزدجـرد الثالـث جيشـه الامبراطـوري فـي معركـة القادسـية فـي أيلول/سـبتمبر 636، وانتهـاء الحكـم الساسـاني فـي غـرب بـلاد الفرس.

بـدأت اسـتعدادات البيـزنطيين فـي أواخـر سـنة 635 ومـع حلـول شـهر آيار/مـايو 363 كـان هرقـل قـد جمـع قـوة كبيـرة فـي أنطاكيـا فـي شـمال سـوريا. تـألف الجـيش المركـب مـن قبائـل السـلاف والفرنجـة والجورجيـون، واالأرمـن والعـرب المسـيحيون .نسـقت هـذه القـوة إلـى خمـس جيـوش، القائـد العـامثيودور تريثوريـوس - شـقيق القيصـر .-وماهـان مـن الأرمـن والقائـد العسـكري السـابق لمدينـة حمـص، والـذي قـام بالقيـادة الميدانيـة الإجماليـة، والـذي يوجـد تحـت قيادتـه جـيش خـالص مـن الأرمـن. قنـاطير الأميـر السـلافي قـام بقيـادة السـلاف .جبلـة بـن الأيهـم، ملـك العـرب الغساسـنة، قـام بقيـادة قـوة مـن العـرب المسـيحيين حصـراً. والقـوة المتبقيـة كانـت كلهـا مـن الأوروبيـين وضـعت تحـت قيـادة غريغـوري ودريجـان .وقـد أشـرف هرقـل شخصـياً علـى العمليـة مـن مدينـة أنطاكيـا. ذكـرت مصـادر تاريخيـة بيزنطيـة بـأن ابـن الجنـرال الفارسـي شـهرباراز كـان أحـد القـادة أيضاً إلا انه غير معروف أي جيش كان تحت قيادته.

وكـان جـيش المسـلمين مقسـماً إلـى أربعـة مجـاميع: واحـد تحـت قيـادة عمـرو بـن العـاص فـي فلسـطين، وواحـد تحـت قيـادة شـرحبيل بـن حسـنة فـي الأردن، والآخـر تحـت قيـادة يزيـد ابـن أبـي سـفيان ضـمن منطقـة دمشـق، والأخيـر تحـت قيـادة أبـو عبيـدة بـن الجـراح جنباً إلـى جنـب مـع خالـد بـن الوليـد فـي مدينـة حمـص. وكـون الجيـوش المسـلمة كانـت مقسـمة جغرافيـاً، حـاول هرقـل اسـتغلال هـذا الوضـع وخطـط لشـن الهجـوم. حيـث إنـه لـم يرغـب بالاشـتباك فـي معركـة ملتصـقة واحـدة بـل اسـتخدام تكتيـك الموقـع المركـزي ومحاربـة جيـوش المسـلمين كـل علـى حـدة بتركيـز قـوة كبيـرة ضـد كـل فرقـة مـن فـرق المسـلمين قبـل أن يتمكنـوا مـن توحيـد جنـودهم. وذلـك بإجبـار قـوات المسـلمين إمـا علـى الانسـحاب أو بتـدميرها علـى حـدة. ومـن ثـم يسـتوفي اسـتراتيجيته باسـتعادة الأراضـي المفقـودة. أُرسلت تعزيـزات إلـى مدينـة قيسـارية تحـت قيـادة قسطنطين الثالـث – ابـن هرقـل – على الأرجح لدحر قوات يزيد ابن أبي سفيان التي كانت تحاصر المدينة.

تحرك الجيش الامبراطوري البيزنطي من أنطاكيا إلى شمال سوريا في وقت ما من حزيران/يونيو 636 م. الجيش الامبراطوري البيزنطي كان يعمل على النحو التالي: جيش جبلة بن الأيهم خفيف التدريع من العرب المسيحيين أن ينطلق إلى حمص من حلب عبر حماة ويحتجز الجيش الرئيسي للمسلمين في حمص. أن يقوم ديرجان بتحركات ملتوية ما بين الساحل وطريق حلب حيث يصل إلى حمص من الغرب مغيراً على الجناح الأيسر للمسلمين في الوقت الذي هم يجابهون من الأمام عن طريق جبلة بن الأيهم. وأن يغير غريغوري على الجناح الأيمن للمسلمين ويصل إلى حمص من الشمال الشرقي عبر منطقة الجزيرة. وأن يندفع قاناطير بمحاذاة الطريق الساحلي ويحل بيروت، التي منها يهاجم مدينة دمشق ضعيفة التحصين من الغرب ويفصل الجيش الرئيسي للمسلمين في حمص. وتعمل فرقة ماهان كقوة احتياطية وتصل حمص عن طريق حماة.

أرض المعركة

اكتشف المسلمون استعدادات هرقل عن طريق الأسرى الرومان. مما اطرق الإنذار من احتمالية أن يمسكوا في قوات منفصلة والتي من الممكن هزيمتها. دعى خالد بن الوليد إلى مجلس الحرب. حيث نصح أبو عبيدة بن الجراح لسحب القوات من فلسطين ومن شمال ووسط سوريا ومن ثم توحيد جميع جيوش المسلمين في مكان واحد. أمر أبو عبيدة بتجميع الجنود في السهل الواسع قرب جابيا، حيث التحكم بالمساحة يجعل هجمات الخيالة ممكنة وأيضاً يمهد لوصول التعزيزات من الخليفة أبو بكر الصديق .وهكذا فإن قوة موحدة قوية ممكن أن تجابه في الميدان الجيوش البيزنطية. تميز الموقع أيضاً من قربه من مركز قوة الدولة الإسلامية في الحجاز في حال حدث الانسحاب. و صدرت تعليمات من الخليفة بإعادة الجزية التي دفعت إلى أصحابها. على أية حال، بالتجمع في منطقة جابيا.

كـان المسـلمون عرضــة لهجـوم قـوات الغساسـنة حلفـاء البيـزنطيين. وبـالتخييم فـي المنطقـة كـان أيضـاً أمـراً خطيـراً لأن قـوة بيزنطيـة قويـة كانـت لا تـزال موجـودة فـي قاسـارية والتـي مـن الممكـن أن تهـاجم المسـلمين مـن الخلـف بينمـا هـم منشـغلين مـع البيـزنطيين مـن الامـام. وبنـاء علـى نصـيحة خالـد ابـن الوليـد، انسـحبت قـوات المسـلمين إلـى الـدارة وديـر أيـوب، مسـتغلين الهـوة بـين حلـق اليرمـوك وسـهل جـراء البركـاني، وبنـوا خـط مـن الخيـام فـي الجزء الشرقي من سهل اليرموك.

كانــت هــذه نقطــة دفــاع قويــة وهــذه المنــاورات جــرت المســلمين والبيــزنطيين إلــى مواجــه حاســمة، الأمــر الــذي أراد الأخيــر تجنبــه. خــلال هــذه المنــاورات الإســتراتيجية لــم تكــن هنــاك مواجهــات ماعــدا مناوشــة صــغيرة بــين فرقــة صــفوة الخيالــة الخفيفــة لخالــد وطليعة الجيش البيزنطي.

ساحة المعركة

المعركة كانت في شمال الأردن.

نشرالجنود

أكثــر الحســابات الإســلامية قــدماً تضـــع حجــم الجيــوش الإســلامية مــا بـــين 24.000 و 40.000 وحجـــم القـــوات البيزنطيـــة بـــين 100.000 و 200.000. حسـابات حديثـة لحجـم كـلا الجيشـين تتنـوع: تقـديرات للجـيش البيزنطـي غالبـاً مـا بـين 80.000 و 120.000، مـع بعـض التقـديرات تصـل إلـى 50.000 و 15.000 – 20.000. وتقـديرات الجـيش الإسـلامي بـين 25.000 و 40.000. تـأتي هـذه الأرقـام مـن القـدرات المنطقيـة للمقـاتلين، واسـتدامة أساسـات العمليـات، والقـوة البشـرية الاجماليـة حصر التأثير كلا الرومان والعرب.

علـى أيـة حـال، الإجمـاع علـى أن الجـيش البيزنطـي وحلفائـه يفوقـون جـيش المسـلمين بهـامش ضـخم، وحيـث أن معركـة اليرمـوك مـن المعـارك الفاصـلة فـي فتـوح الشـام فـإن دفـاع البيـزنطين عـن الشـام يحـتم ضـخامة الجـيش البيزنطـي الـذي كـان يمثـل أحـد أقـوى قـوتين فـي العـالم فـي هـذا الوقـت كمـا أن البيـزنطيين قـد اسـتعانوا فـي هـذه المعركـة كعـادتهم بأعـداد كبيـرة مـن المرتزقـة والشـعوب التـي كانـت تحـت سـيطرة إمبراطريتهم.

جيش المسلمين

أثنـاء عقـد مجلـس الحـرب، تـم عـزل خالـد مـن قبـل أميـر المـؤمنين وتـولى الجـيش أبوعبيـده بـن الجـراح وقـد قسـم جـيش المسـلمين إلـى 36 كتيبـة مشـاة وأربعـة كتائـب للخيالة، وتولى هو قيادة صفوة الخيالة المتحركة وجعلها كقوة احتياطية.

نظم خالد الجيش على تشكيل الطابعة وهو تشكيل دفاعي قوي لقوات المشاة. اصطف الجيش الإسلامي على طول 12 كيلومتر مواجهة الغرب، وجناحه الأيسر إلى جهة نهر اليرموك على مسافة ميل واحد من بداية الاودية وادي العلن. جناح الجيش الأيمن على جهة طريق الجابية إلى الشمال بمحاذاة مرتفعات تل الجمعة، ومع وجود فراغات بين الفرق العسكرية بحيث تتطابق واجهة الجيش مع الجيش البيزنطي على طول 13 كيلومتر. مركز الجيش كان تحت قيادة أبو عبيدة بن الجراح الذي تولى قيادة (الوسط الأيسر) وتولى شرحبيل ابن حسنة قيادة (الوسط الأيمن).

وكان (الجناح الأيسر) تحت لواء يزيد بينما (الجناح الأيمن) تحت قيادة عمرو بن العاص. المركز وكلا الجناحين اسندت بفرق الخيالة لتستخدم كقوة احتياطية أثناء الهجوم المعاكس في حالة التراجع تحت ضغط الجيش البيزنطي.

وخلف المركز تقف الخيالة المتحركة تحت القيادة الشخصية لخالد بن الوليد. وفي حالة انشغال خالد في قيادة الجيش الأساسي، يتولى ضرار بن الأزور قيادة فرقة الخيالة المتحركة. عبر مسار المعركة، يستخدم خالد قوته الاحتياطية الراكبة في استخدامات حاسمة وحرجة. قام خالد بإرسال عدة جوالة لأبقاء البيزنطيين تحت المراقبة. في اواخر تموز/يوليو 636، ارسل ماهان جبلة بن الايهم مع قوته الخفيفة من العرب ا لمسيحيين للقيام باستكشاف إجباري لجيش المسلمين

إلا أنه تم صد هذه القوة من قبل الخيالة المتحركة. بعد هذه المناوشة لم تحدث أي مناوشات أخرى خلال الشهر.

يوم التسليح

استخدمت خوذ بعضها ذهبية مشابهة للخوذ الفضية لجيش الامبراطورية الفارسية .وكان استخدام الدروع شائعاً لحماية الوجوه والرقبة. وكان استخدام الدروع الجلدية السميكة نموذجياً لدى الجنود المسلمين الأوائل كما هو الحال في الجيش البيزنطي. تضمن التدريع صفائح سميكة من الجلد أو الدرع الجلدي lamellar armor - وهو درع مكون من صفائح جلدية سميكة مربطة مع بعضها البعض – ودرع شبكي - mail armor وهو درع مكون من حلقات معدنية صغيرة مترابطة في نمط معين لتشكل شبكة – كان المشاة أفضل تدريعاً بكثير من الخيالة. حيث استخدمت ستائر خشبية كبيرة. استخدم المسلمون الرماح الطويلة،

حيث زود المشاة برمح طوله 2.5 م والفرسان برماح طول 5.5 م. استخدم المشاة سيوف قصيرة شبيهه بالسيوف البيزنطية الكلاديوس؛ واستخدم الفرسان عادة السيوف الفارسية الطويلة. وبلغ ذراع الأقواس 2 متر في حالة الرخاء، مشابه في حجمه القوس الإنكليزي المشهور اللونغ بو(longbow) ، أقصى مدى مؤثر للقوس بلغ 150 م. كان النبالة المسلمين من المشاة الذين برهنوا تأثيرهم الفعال ضد فرسان العدو.

الجيش البيزنطى

بعد أيامٍ من تخييم المسلمين في سهل اليرموك، استهل الجيش البيزنطي جيش جبلة بن الأيهم الخفيف التسليح، والذي تقدم وخيم إلى الشمال من وادي الرقاد . كان الجناح الأيمن للجيش البيزنطي في النهاية الجنوبية من السهل قرب نهر اليرموك

وعلـى بعـد حـوالي ميـل واحـد قبـل اودية وادي العلـن .وكـان الجنـاح الأيسـر فـي الشـمال، علـى مسـافة قريبـة مـن بدايـة تـلال جابيـا، حيـث كـان مكشـوفاً نسبياً.نشـر ماهـان جيشــه الإمبراطـوري مواجهـاً للشـرق، مـع خـط أمـامي بطـول 13 كيلـومتر، حيـث أراد أن يغطــي كـل المســافة بــين مــنخفض اليرمــوك فــي الجنــوب والطريــق الرومــاني المــؤدي إلــى مصــر فــي الشــمال، وتركــت مســافات كبيــرة بــين كتائــب الجــيش البيزنطــي. كــان الجنـاح الأيمـن بقيـادة غريغـوري والأيسـر لقانـاطير .وتشـكل الوسـط مـن جـيش ديرجـان وجــيش الأرمــن لماهــان. وكلاهمــا تحــت القيــادة العامــة لــديرجان. ضــم الرومــان فــرق الخيالــة الثقيلــة، فرقــة الــدروع، التــي وزعــت بالتســاوي بــين الجيــوش الرومانيــة الأربعــة، ووضـع كـل جـيش المشـاة فـي المقدمـة، والفرسـان كقـوة احتياطيـة فـي الخلـف. نشـر ماهـان جـيش العـرب المسـيحيين والـذي يمتطـي الخيـول والجمـال كقـوة للمناوشـات، التـي تحجـب الجيش الرئيسي لحين وصوله. ذكرت مصادر إسلامية قديمة بأن جيش غريغوري

كـان قـد اسـتخدم سلاسـل لـربط أقـدام الجنـود الـذين اخـذو عهـداً بـالموت. كانـت السلاسـل بطـول عشـر رجـال واسـتخدمت كـدليل علـى الشـجاعة التـي لا تهتـز، كسـمة مـن سـمات الرجـال، والـذين أظهـروا بـذلك رغبـتهم فـي المـوت وعـدم الانسـحاب أبـداً. عملـت هـذه السلاسـل أيضـاً كضـمان لعـدم حـدوث أي ثغـرة ممكـن ان تحـدث مـن قبـل فرسـان العـدو. علـى كـل حـال، فقـد ذكـر مـؤرخين معاصـرين بـأن الجـيش البيزنطـي تبنـى التشـكيل العسـكري المسـمى تسـتودو Testudo الرومـاني، حيـث يقـف فيـه الجنـود كتفـاً لكتـف وتِمسـك الـدروع إلـى الأعلـى ونسـق مـن 10−20 رجـل بحيـث يكونـون محميـين مـن كـل الجوانب من مقذوفات العدو، ويوفر كل جندي غطاء للجندي المجاور له.

التسليح

تسـلح الفرسـان البيـزنطيين بسـيوف طويلـة معروفـة بسـباثيون spathion. بالإضـافة إلـى رمـح خشبي خفيـف يسمى كنتـاريون Kontarion وقـوس توكسـاريون Toxarionمـع اربعـين سـهم فـي الـرف، يتـدلى إمـا مـن السـرج أو مـن حـزام الجنـدي. المشـاة الثقيلـة المعروفـة بسـكوتاتوي Skoutatoi تسـلحت بسـيوف ورمـاح قصـيرة. وحمـل النبالـة البيـزنطيين تسـليح خفيـف ودروع صـغيرة، ويتـدلى القـوس مـن الكتـف إلـى الظهر مع حفنـة من السهام. اشتمل تـدريع الفرسان علـى الـدرع الشبكي mail armor وخـوذة وقـلادة) pendant حاميـة للرقبـة) وأهـداب ناتئـة مـن الخـوذة لحمايـة أجـزاء الوجه. وكان للمشاة تدريع مماثل مع خوذة ودرع للصدر وللساق.

واستخدمت أيضاً الدروع الجلدية السميكة lamellar وصفائح مدرعة scale armor - وهي دروع تتكون من العديد من الصفائح الصغيرة المرتبطة مع بعضها البعض كمواد داعمة للدروع الجلدية أو الملابس.-

توتر فى الجيش البيزنطة

أجبرت استراتيجية خالد بن الوليد الانسحاب من الأراضي المحتلة وجمع كل الجنود لمعركة واحدة حاسمة أجبرت البيزنطيين على جمع جميع جيوشهم في جيش واحد كرد فعل طبيعي. وكان البيزنطيون يتجنبون لعقود الاشتباك في معارك حاسمة ذات نطاق واسع، وخلق تجميع قواتهم سوية توتر لوجستي والذي كانت لم تكن الإمبراطورية مستعدة له. كانت دمشق القاعدة اللوجستية الأقرب، ولكن لم يتمكن أمير دمشق منصور من دعم الجيش البيزنطي الهائل الذي تجمع في سهل اليرموك.

لهـذا فـإن عـدة اشـتباكات قيـل أنهـا حـدثت بـين الجـيش البيزنطـي والسـكان المحليـين, حيـث كـان الصـيف فـي نهايتـه ولا مفـر مـن رعايـة الماشـية لـدعم الجـيش. اتهمـت مصـادر فـي القصـر البيزنطـي ماهـان بالخيانـة العظمـى كونـه عصـى أوامـر هرقـل بعـدم خـوض المعركـة بنطـاقٍ واسـع مـع العـرب. وبإعطـاء الأثـر البعيـد لجيـوش المسلمين فـي اليرمـوك، رغـم ذلـك، لـم يكـن لـدى فاهـان الكثيـر مـن الخيـارات إلا أن يـرد بلطـف. كانـت العلاقـات بـين القـادة البيـزنطيين مفعمـة بـالتوتر أيضـاً. حيـث كـان هنـاك صـراع علـى القـوة بـين تروثوريـوس وفاهـان وجـاراجس وقنـاطير .وقـد تـم تجاهـل جبلـة بـن الأيهـم قائـد العـرب المسـيحيين بشـكل كبيـر، الأمـر الـذي أضـر بسـير المعركـة لجهـل البيـزنطيين بطبيعـة الأرض المحليـة. ولهـذا فقـد سـاد جـو مـن عـدم الثقـة بين اليونان والأرمن والعرب المسيحيون.

كـان جـيش البيـزنطيين يتـألف مـن خمسـة جيـوش، حيـث قـاد ماهـان) أو فاهـان (
ملـك أرمينيـة جيشـه الأرمنـي، وقـاد الأميـر" قنـاطير (Buccinator) "السـلافي،
أو الروســي، جيشــه مــن الشــعوب الســلافية، وكــان ملــك الغساســنة جبلــة بــن الأيهــم
الغسـاني علـى رأس جـيش المسـيحيين العـرب (كلهـم مـن راكبـي الخيـول والجمـال)، وكانـت
الجيـوش الأوروبيـة كاملـة تحـت قيـادة غريغـوري ودريجـان، حيـث تـولى دريجـان قيـادة
الجيـوش مجتمعـةً. كمـا شـارك تيـودوروس، شـقيق القيصـر هرقـل فـي المعركـة، وهـو
"تـذارق" بـالمراجع العربيـة، وكـذلك "دارقـص أو سـقلاب"، وكـان خصـي لهرقـل قـاد الآلـف
من المقاتلين الروم.

كـان جنـد غريغـوري علـى ميمنـة جيـوش الـروم وقـد ربطـوا أرجلهـم بالسلاسـل تعبيـراً
عـن تصـميمهم علـى الصـمود تحـت كـل الظـروف، ورمـزا للشـجاعة، كمـا أن السلاسـل
يمكــن أن تســتخدم ضــد خيــول المســلمين فــي حــال حــدوث خــرق فــي صــفوف جــيش
غريغوري. وهذا ماجعل حركة الجنود بطيئة على كل الأحوال.

أحداث المعركة

دامت المعركة ستة أيام، كان المسلمون فيها يردون هجمات الروم في كل يوم، حيث كان خالد بن الوليد يستخدم "سرية الخيالة المتحركة السريعة" التي يقودها بنفسه ليتحرك بسرعة خاطفة من مكان إلى آخر حيث يكون جيش المسلمين في تراجع تحت ضغط الروم، ويعود كل من الجانبين في نهاية النهار إلى صفوفه الأولية قبل القتال أو إلى معسكراته.

وجرى الأمر كذلك خلال الأربعة أيام الأولى كانت فيها خسائر الروم بالأعداد أكبر من خسائر جيش المسلمين، وفي اليوم الخامس لم يحدث الشيء الكثير بعد رفض خالد "هدنة ثلاثة أيام" التي عرضها الروم بقوله المشهور لرسول الروم "نحن مستعجلون لإنهاء عملنا هذا"

وفي اليوم السادس تحولت إستراتيجية خالد من الدفاع إلى الهجوم، وتمكن بعبقريته الفذة من شن الهجوم المجازف على الروم واستخدام الأسلوب العسكري الفريد من نوعه آنذاك وهو الاستفادة الصحيحة من إمكانيات "سرية الفرسان سريعة التنقل" ليحول الهزيمة الموشكة للمسلمين إلى نصر مؤزر لهم.

وقاتلت نساء المسلمين من خلف الجيوش (في معسكرات المسلمين الخلفية) في هذه المعركة، وقتلن عدداً كبيراً من الروم وقتلت خولة بنت الأزور على سبيل المثال، وكن يضربن من انهزم من المسلمين بالحجارة ويزجرنهم، وفق تعليمات خالد عند قدومه وتنظيمه لجيش المسلمين، ويصرخن قائلات: "أين تذهبون وتدعوننا للعلوج"، وعندئذ يرجع المنهزمون،

وقـد تكـرر ذلـك فـي كـل يـوم مـن أيـام المعركـة، حتـى قيـل أن بعـض المقـاتلين عنـدما كـانوا يهمـون بـالفرار إلـى الخلـف كـانوا يقولـون "مواجهـة الـروم ولا مواجهـة نسـائنا" وبعدها يكر المسلمون لشن الهجوم المعاكس.

اليوم الأول من المعركة.

بـدأت المعركـة فـي يـوم 15 آب/أغسـطس 636. مـع حلـول الفجـر اصـطف كـلا الجيشـين للقتـال يفصـلهما اقـل مـن ميـل واحـد. قـد سـجل فـي يوميـات المسـلمين بـأن قبـل أن تبـدأ المعركـة اتجـه جـورج القائـد فـي فرقـة الوسـط الأيمـن فـي الجـيش البيزنطـي إلـى جـيش المسـلمين ودخـل الإسـلام، وقتـل شـهيداً (بـإذن الله) فـي نفـس اليـوم محاربـاً إلـى جانـب المسـلمين .كانـت البدايـة بإرسـال البيـزنطيين ابطـالهم مـع المبـارزين المسـلمين فـي قتـال ثنـائي. كـان المبـارزين المسـلمين مـدربين بشـكل خـاص علـى السـيوف والرمـاح لقتـل أكبر عدد ممكن من قادة العدو من اجل تثبيط عزيمتهم. وفي منتصف النهار،

وبعد خسارة عدد من القادة في القتال الثنائي، أمر فاهان بهجوم محدود من ثلث قوات جيشه من المشاة لتجربة قوة استراتيجية جيش المسلمين، وإذا ما امكنه احداث ثغرة في اي منطقة ضعيفة في المعركة. على اية الحال، افتقد الهجوم البيزنطي إلى الإصرار؛ الكثير من جنود الجيش الامبراطوري لم يكونوا معتادين على القتال ولم يتمكنوا من ممارسة الضغط على الجنود المسلمين المحنكين.

كان القتال بصورة عامة معتدل، بالرغم من انه في بعض الأماكن كان شديداً. لم يقم فاهان بدعم مشاته المتقدمين، حيث بحلول الغروب كسر كلا الجيشين التماس عاد كلاً إلى مخيمه.

الهجوم البيزنطي.

قرر ماهان شن الهجوم المباغت عند الفجر، عندما يكون جيش المسلمين غير مستعد ولكن خالد كا ن قد وضع نقاطا دفاعية قوية متقدمة خلال الليل سراً مما افقد عنصر المفاجئة التي كان يخطط لها البيزنطيون، ودارت المعركة وتراجع كل من جانبي الجيش المسلم، الميمنة والميسرة،

المرحلة الأولى من الهجوم المعاكس

حيث تدخل خالد بفرقته السريعة التنقل مرة في الميمنة ليوقف تقدم الروم، وبعدها في الميسرة،

المرحلة الثانية من الهجوم المعاكس حيث قسم خالد هنا وحدته المتنقلة السريعة ليرسل قسما منها بقيادة ضرار بن الأزور إلى قلب جيش الروم من الجهة اليمنى له، حيث تمكن ضرار في هذا الهجوم من قتل القائد البيزنطي دريجان رغم أن ألفين من الفرسان الروم البيزنطيين كانوا بحراسته.

وتـرك مقتـل دريجـان وفشـل خطـة ماهـان الأثـر المـدمر علـى نفسـية المقـاتلين الـروم بينما كان لنجاح خالد بصد الهجوم الأثر الأقوى لتعزيز معنويات الجند المسلمين.

أحداث اليوم الثالث

الهجوم البيزنطي.

بعـد أحـداث اليـوم السـابق ومقتـل دريجـان أحـد كبـار قـادة الـروم، تركـز فـي هـذا اليـوم هجـوم الـروم علـى نقطـة محـددة لفصـل الجـيش الإسـلامي، وهـي النقطـة بـين الميمنـة التـي كانـت تحـت قيـادة عمـرو بـن العـاص يقابلـه" قنـاطر "قائـد السـلاف، وقلـب الجـيش الإسلامي من الجانب الأيمن تحت قيادة شرحبيل يقابله ماهان،

وبدأ الهجوم على لواء عمرو بن العاص الذي استطاع في البداية الصمود قبل أن يلعب التفوق العددي للروم دوره ليتراجع جنود عمرو بن العاص إلى الوراء بإتجاء معسكرهم، كما بدأ جنود شرحبيل في اللواء المجاور بالتراجع.

الهجوم المعاكس.

وتدخلت سرايا الخيالة المسلمين لصد الهجوم بالالتفاف عن يسار الروم، أي من الطرف الشمالي لكل لواء، وبعدها تدخل خالد مجدداً بمجموعته سريعة التنقل ليهاجم جند ماهان المتقدمين ضد لواء شرحبيل. وتم صد الهجوم وتراجع الروم إلى أماكنهم الأصلية كما كانت قبل بداية المعركة. وجاء المساء لينتهي هذا اليوم.

أحداث اليوم الرابع

تم صد هجوم مماثل على الجهة نفسها، بسبب إنهاكها في اليوم السابق، كما فكر وخطط ماهان، فقد تراجع شرحبيل أمام جيش الأرمن المدعم بشكل قوي من الخيالة العرب المسيحيين بقيادة جبلة، كما تراجع عمرو بن العاص أمام جيش "قناطر "السلافي .وتعرض شرحبيل للضغط الشديد وبدأت علائم الإنهاك على جنده.

الهجوم البيزنطي في اليوم الرابع.

وقبل أن يتدخل خالد بفرقته السريعة التنقل ليشارك برد الزحف الرومي أمر أبا عبيدة بن الجراح ويزيد ببدء الهجوم على الجيش لإشغاله في القطاعين المقابلين لهما القسم الأيمن من القلب والميمنة الرومية وعدم تمكينهم من القيام بالهجوم الشامل.

وتمكن خالد بن الوليد من القيام بمناورات ذكية أدت إلى تراجع الأرمن، ودام ذلك طوال بعد الظهر، وبعد فقدان الدعم الأرمني تراجع كذلك السلاف بقيادة" قناطر " ليعود الجميع إلى أماكنهم.

على الجانب الآخر استعر قتال الروم مع جيشي أبي عبيدة بن الجراح ويزيد وتعرض الجند المسلمين إلى رمي عنيف بالنبال أدى إلى فقدان الكثير لبصرهم نتيجة إصاباتهم في عيونهم، منهم :أبو سفيان والمغيرة بن شعبة وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص والأشعث بن قيس وعمرو بن معد يكرب وقيس بن مكشوح والأشتر النخعي، وسمي ذلك اليوم بيوم خسارة العيون، وتراجع الجيشان المسلمان، جيش عبيدة وجيش يزيد إلى الخلف.

هجوم المسلمين المعاكس.

ولاحت علائم الهزيمة ولكن عكرمة بن أبي جهل نادي مجاهدين للقسم على النصر أو الشهادة، فلبى نداءه 400 من المقاتلين المجاهدين وقاتلوا محاولين وقف الروم، وأوقفوا زحف الروم بعد مقتلهم جميعاً، ولكنهم قتلوا عدداً أكبر بكثير من 400 مقاتل بيزنطي، وأصيب عكرمة وإبنه عمرو إصابة مميتة في هذه الوقعة، وعرف عكرمة بنجاح المسلمين بصد الهجوم وحمد الله قبل أن يموت متأثراً بجراحه، ليحل الظلام وينتهي ذلك اليوم.

نتائج المعركة

تحـرك خالـد بـن الوليـد شـمالاً حالمـاً انتهـت العمليـة ملاحقـاً الجنـود البيـزنطيين المنسـحبين؛ حيـث لاقـاهم قـرب دمشـق وقـام بمهـاجمتهم. وهنالـك قُتـل القائـد العـام للجـيش الامبراطـوري فاهـان والـذي كـان قـد هـرب مـن المصـير المحتـوم الـذي لاقـاه بقيـه جنـوده أثنـاء المعركـة. وفـتح بعـدها خالـد بـن الوليـد مدينـة دمشـق ويقـال أن سـكانها رحبـوا بـه. وعنـدما وصـلت أخبـار الهزيمـة المأسـاوية إلـى هرقـل فـي مدينـة أنطاكيـة، أصـبح محطمـاً غائظـا والقـي بـاللوم علـى السـيئ مـن أفعالـه كـزواج ابنـة أختـه مارتينـا الـذي اجبرهـا عليـه سـبباً لخسـارته. ولـو امتلـك هرقـل المـوارد اللازمـة ربمـا لقـام بمحاولـة أخـرى لاسـتعادة فـتح المحافظـات التـي خسـرها. ولكنـه لـم يعـد بعـد يملـك الرجـال ولا المـال الكـافي ليـدافع عـن مناطقـه. وبـدلاً عـن ذلـك قـام بالانسـحاب إلـى كاتدرائيـة أنطاكيـة طالبـاً الشـفاعة. وقـام باستدعاء مستشاريه في الكاتدرائية للتمعن في أسباب الهزيمة،

حيث أُعلم بالإجماع بأن الخسارة هي قرار من الرب ونتيجة لذنوب الشعب، وهو من ضمنهم، وقد قبل بهذا التفسير. وبعدها نقل هرقل على متن سفينة إلى القسطنطينية ليلاً، وقيل بأنه ألقى توديعةً أخيرةَ إلى الشام عندما أبحرت سفينته، حيث قال: "الوداع، وداعاً أخيراً يا سوريا، يا محافظتي الجميلة، أنت درة العدو الكافر الآن، فالتنعمي بالسلام يا سوريا، أي ارضِ جميلة ستكونين لهم"

هجر هرقل سوريا آخذاً معه الأثر المقدس – الصليب الحقيقي- True Cross ، مع آثار أخرى من اجل الحفاظ عليها من العرب الغزاة، والتي كانت محفوظة جميعها في مدينة القدس. حيث نقلها بارثيا Parthia القدس سراً عبر البحر. وقيل بأن الإمبراطور كان يخشى البحر، لذا بنوا له جسراً عائماً عبر بحر البسفور للوصول إلى القسطنطينية .

وبعد أن تخلى عن الشام، بدء بتجميع ما تبقى له من قوات من اجل الدفاع عن الاناضول ومصر بدلاً عنها. ولم يبذل المسلمون جهوداً تذكر لاحتلال الاناضول، إلا أنها ظلت تخضع لغارات سنوية، مما أدى إلى تدمير النشاطات الاقتصادية الاجتماعية لمنطقة شرق الاناضول. وسقطت أرمينياالبيزنطية على يد المسلمين سنة 638–39 والتي قام بعدها هرقل ببناء منطقة صد في وسط الاناضول بعد أن أمر بأجلاء جميع الحصون الواقعة شرق مدينة طرطوس .وأخيراً وفي سنة 639–642 قام المسلمون بغزو وفتح مصر البيزنطية، بقيادة عمرو بن العاص –قائد الجناح الأيمن لجيش المسلمين في معركة اليرموك.

وفاة أبو عبيدة بن الجراح ووصاياه

توفّي أبو عبيدة رضي الله عنه على إثر إصابته بمرض طاعون عمواس الشّهير في السنة الثامنة عشرة للهجرة عن عمرٍ يناهز ثمانيةً وخمسين عاماً، وقد استخلف معاذ بن جبل على الجند بعد موته.

وصاياه

يا أيها النّاس! توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحا، فإنّ عبداً لا يلقى الله تائباً من ذنبه إلّا كان حقّاً على الله أن يغفر له، من كان عليه دين فليقضه، فإنّ العبد مرتهن بدينه، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليصالحه، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث، إنّكم أيّها المسلمون قد فجعتم برجلٍ ما أزعم أنّي رأيت عبدا أبر صدراً و لا أبعد غائلة، ولا أشدّ حباً للعامة، ولا أنصح للعامة منه فترحموا عليه رحمه الله، واحضروا الصلاة عليه. (تاريخ مدينة دمشق)

وأخــرج الحــاكم فــي المســتدرك بســنده عــن أبــي ســعيد المقبــري قــال: مــات أبـو عبيـدة بـن الجـراح، فقـام معـاذٌ فـي النّـاس فقـال: إنّكـم أيّهـا النّـاس قـد فجعـتم برجـلٍ والله مـا أزعـم أنّـي رأيـت مـن عبـاد الله عبـدا قـطّ أقـل غمـزًا ولا أبـر صـدرا، ولا أبعـد غائلـةً، ولا أشـد حبًّـا للعاقبـة، ولا أنصـح للعامـة منـه، فترحمـوا عليـه رحمـه الله، ثـم أصـحروا للصـلاة عليـه، فـاجتمع النّـاس، وأخـرج أبـو عبيـدة، وتقـدم معـاذٌ فصـلّى عليـه حتّـى إذا أتـى بـه قبـره دخـل قبـره معـاذ بـن جبـلٍ وعمـرو بـن العـاص والضّـحاك بـن قـيسٍ، فلمـا وضـعوه فـي لحـده وخرجـوا فشـنّوا عليـه التّـراب، فقـال معـاذ بـن جبـلٍ: يـا أبـا عبيـدة، لاثنـينّ عليـك ولا أقـول بـاطلاً أخـاف أن يلحقنـي بهـا مـن الله مقـتٌ كنـت والله مـا علمـت: مـن الـذّاكرين الله كثيـرا، ومـن الّـذين يمشـون علـى الأرض هونـا، وإذا خـاطبهم الجـاهلون قـالوا: سـلاما، ومـن الّـذين إذا أنفقــوا لــم يســرفوا ولــم يقتــروا، وكــان بــين ذلــك قوامــا وكنــت والله مــن المخبتــين المتواضعين الّذين يرحمون اليتيم والمسكين ويبغضون الخائنين المتكبرين.

فهرس